بدل ضائع

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

ببلومانيا
للنشر والتوزيع

- **الكتاب: بدل ضائع**
- **المؤلف: دعاء بشير البرناوي**
- **نوع العمل: رواية**
- **الطبعة الأولى 1442 هـ - 2020 م - القاهرة**
- **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**
- **رقم الإيداع: 2020 / 21565**
- **الترقيم الدولي (ISBN): 9789776845657**
- **الرقم الكودي في ببلومانيا: bl00394**
- **مراجعة لغوية وتدقيق: أمل خليل**
- **الغلاف: ببلومانيا**
- **التنسيق الداخلي: ببلومانيا**
- مدير عام: جمال سليمان - مدير إداري: ديانا حمزة – مدير تنفيذي: محمد جلال
- العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة
  عنوان (2): 29 شارع الكمال – الأميرية – القاهرة
- تليفاكس: 002026337855 - 002026064518
- محمول: 00201208868826 – 00201030504636 – 00201210826415
- صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
- الموقع الإلكتروني: www.bibliomaniapublishing.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

/bibliomania.eg

بدل ضائع

رواية

دعاء بشير البرناوي

بيلومانيا للنشر والتوزيع

www.bibliomaniapublishing.com

2020

مقدمة

الحمد اللّه الذي منحني نعمة الشكوى لقلمي، أخمدت وجعي بحبر أدمعي وسكنت.

هذه الرواية قد منّ الله عليَّ بالحياة الكريمة؛ لكي أتم كتابتها
فكان ذلك بفضل الله، ومن ثمّ عائلتي.
إهداءٌ خاص لأبي وأمي، وأختي الغالية صفاء، كل فردٍ منهم كان سندًا لي للوصول إلى ما أنا عليه الآن، وإهداء خاص إلى ابني الذي أتمنى بعد أن يكبر أن يكون فخورًا بأمه التي كانت له الأب والأم، والتي فعلت كل ما بوسعها ليحظى بحياةٍ كريمة، ولكل من ساهم في تكوين شخصيتي التي أنا كلّي فخر بها اليوم.

دعاء بشير البرناوي

عزيزي القارئ، أضع بين يديك هنا أحداثًا وصورًا ربما ألِفتها أو سمعت عنها، أو ربما قد عشتها، أو تسببتَ بها، وإن كنت جزءًا من هذا المجتمع الشرقي، فلابد أن تكون أحد أعمدة هذه الرواية باختلاف المجتمعات الشرقية والثقافات والأديان والطوائف، سيبقى هناك مفهومًا شرقيًا واحدًا مشترك ما بينهم، وستظل الأنثى هي محور القضية، ولأنني أنثى، سأضع بين يديك وجع أنثى، رحلة أنثى استطاعت الحفاظ على رصيدها من الكرامة، ورفضت بأن تقيّم من قبل مجتمعٍ صمّ آذانه عن صوت المنطق؛

لذا حاول معي الشعور بمعاناتها، ثمّ قف احترامًا لها، فهي امرأةٌ تمرّدت على مجتمعٍ عجز عن وصمها.

إهداء:

إلى مجتمعي الذي اجتهد في محاولة دفني، وإلى الذي استغل ضعفي وحبي، وإلى أولئك الرجال الذين أرادوا امتلاك وجهي وجسدي، وإلى كل من مر بحياتي محاولاً كسري، عليكم جميعاً لعنة قلمي.

بعضنا قد لا ينضج من تلقاء نفسه، بل إنه يُجبر على النضج قبل وقته،
والتأقلم على ذلك يحتاج لطاقةٍ ربما تفوق قدرتنا على الاستيعاب؛
لذا لا يمكنك التأقلم وحسب، بل ستحتاج إلى وقت، وستصلي كثيرًا طالبًا من الله الثبات والقوة.
اكتشفت بأني وقعت ضحية مجتمعٍ وعادات متوارثة بوقتٍ متأخر، وبأنني كنت مسيَّرة لا مخيرة، وكأن العالم من حولي منوم مغناطيسيًا، والقاعدة المتبعة هنا هي (نفذ ثم ناقش)، وإن ناقشت لطفًا ناقش بصمت بينك وبين نفسك، وعندما تنتهي من النقاش، قل سمعاً وطاعة.

ماذا حدث؟
سؤالٌ اعتدتُ سماعه فيما بعد، إن التحول من حالةٍ إلى أخرى في وقتٍ مبكر نسبيًا مرهق، وخاصةً عندما لا تمتلك الوعي الكافي للتعامل مع هذا التغيير، إذ نرتكب الخطأ تلو الخطأ دون أن ندرك أنها أخطاءً حتى، إضافةً لعدم استيعابنا لتبعات تلك الأخطاء، التي من شأنها تدمير حياتنا لاحقًا،
نعود إلى السؤال: ماذا حدث؟
فقط في مجتمعي، الحب خطيئة، وقد كنت فتاةً مطيعة لا ترتكب الأخطاء؛
لذا أجبرت بشكلٍ غير مباشر، وربما قد كان (أوسم) الخيارات المتاحة،

أو لنقل مثلًا بأنه امتلك بعض الامتيازات الظاهرية التي لقِّنّا منذ الصغر بأنها كل ما يهم، مثل: الشهادة الجامعية، والسمعة الطيبة، والخلق الحميد،

ستكتشف لاحقًا بأن ليس هذا كل ما يهم، فالمعاشرة ستلقنك عشرات الصفعات غير المتوقعة، وستكتشف بأن هناك العديد من النظريات التي يجب إعادة النظر بها، فلِتُضَحِكَ ضريبةً باهظة الثمن.

النضج سيجعلك تدرك بأن جمال الشكل ربما يكون نقمة، والمال يعطي قيمةً للأشخاص أكثر من العقل، وستدرك بأن لا أحد يستحق التضحية من أجله سوى نفسك، وإن كنت تتمتع بقلبٍ كقلبي، فلن يفيدك هذا الاكتشاف،

والطعنة التي ستترك أثرًا بقلبك ستأتيك، من أكثر الوجوه براءةً، وعفويتك معهم سيقلبونها عليك، الكذب والنفاق عملتان تستخدمان أكثر من المال، والمصالح وحدها سيدة الساحة.

بدل ضائع

بعد استيعابي لدوامة الفشل التي حُشرت بها، كان جُل ما أفكر فيه هو بدل ضائع، كنت بأمس الحاجة إلى أن أجد بديلًا لأجمل سنوات عمري التي قضيتها في محاولة ترميم علاقة فاشلة، ومن الواضح جليًا أن كل محاولاتي الآتية ستبوء بالفشل، كان ينبغي عليَّ التفكير بمنطقية، فنحن دائماً ما نريد تغيير حياتنا، ولكن يجب على هذا التغيير بأن يكون نحوالأفضل لا الأسوأ، وأنا فتاةٌ لا تستهويها المجازفات؛ لذا كنت أضع قلبي وعواطفي جانبًا؛ لأني أعلم بأنها دائمًا ما تجرنا إلى سراب، إلى أن نُصدم بالواقع المرّ، كل ما كان يشغل تفكيري وقتها هو نظرة المجتمع إليَّ بعد قرار الانفصال، فهو لم يرحمني وأنا طفلةٌ، فكيف سيرحمني وأنا في العشرينيات من عمري، ولكن أياً كان ما سأقابله لاحقاً، بالتأكيد سيكون أفضل الجحيم الذي ألاقيه الآن، المنطق يخبرني بأنه لا أمل يرجى من الاستمرار بطريقٍ آخره مغلق.

ستكتشف في مرحلةٍ ما من حياتك، بأن أقسى ما قد يمر عليك هو ألّا تملك الخيار وألّا تقبل بالمتاح، لقد كنت عديمة الحيلة وأنا أرى سنين عمري غارقة بالروتين وبلا فائدةٍ تذكر، إضافةً لشعوري بانعدام الأمان مع أشخاصٍ لا يمكنهم التمييز بيني وبين أساس المنزل، فيرونني شخصًا بلا قيمة، ويجب عليّ بأن أكون في حضورهم معدومة الرأي، والتضحيّة ليست خيارًا، بل فرضًا عليَّ، تلك قوانينهم وإن خالفتها، فلا مشكلة باستبدالك، بذلاتهم المخملية، وشهاداتهم الجامعية

لم تغطِ قبح أفكارهم ولا سوء تصرفاتهم، تعلمت حقيقة أنك كلما تنازلت أكثر، كلما انعدم وجودك أكثر، حتى تبحث عن نفسك فلن تجدها، وإن اخترت عدم التنازل، فأهلًا بك في الجحيم، يُقال اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية، واليوم اختلاف الرأي قد يودي بحياتك، فكيف له الحفاظ على الود؟
في إحدى الليالي الأولى من زواجنا، قلت لي جملةً لن أنساها ما حييت.

- أتعلمين يا ريما، أكره ذكائك.

استغربت قولك يومها؛ لأني لم أكن أعلم بأن الذكاء صفة منبوذة، لكن اعترافك بذكائي أسعدني حقيقةً، كنت طفلة؛ لذا لم استوعب قولك يومها يا نسيم، وحينما نضجت فهمت، الرجل الشرقي -غالباً- يفضل الأنثى الغبية نوعًا ما، لأن ذكائها سيعيق دوره في ممارسة عنجهياته وعنترياته، وستحاول لا محالة كسر القيود الشرقية التي تربَّى على تكبيلها بها.
وخاصةً إن كان لديها طموحًا خارج إطار الطبخ والعناية بالأطفال، فيعتبرها غير مؤهلة لتكون زوجة جيدة، لكن الطامة الكبرى ليست هنا فحسب، بل بالمنهجية التي تتربى عليها الإناث، فأصبحت كل أنثى تحمل بعضًا من الأحلام خارج إطار الزوجية، تواجه النقد الجارح، وتهاجم من قِبَل إناثٍ أخريات كي تتخلى عن تلك الأفكار الغبية -برأيهم- ولكي تعود إلى سرب القطيع مجددًا، ولواضطرهم الأمر إلى استخدام القوة لأجل ذلك.
عندما كنت طفلة اعتدت بأني ممنوعة عن الكثير من الأمور لكوني فتاة، مثلاً خروجي وحدي ممنوع، والدراسة بمدارس

بعيدة ممنوع، وتعلم رياضة ما أو العزف على آلة موسيقية أيضًا ممنوع، كما أنني منعت من ارتداء أية ملابسٍ تروق لي ما لم تروق لهم هم، والمضحك في الأمر أني لم أزعج نفسي في طلب كل ما سبق؛ لأنهم زرعوا في رأسي يقينًا أنه ممنوعٌ، فنشأت لديّ قناعة بأني سجينة داخل جسدي الأنثوي؛ لذا قضيت طفولةً كئيبة وانعزالية دون أن أمتلك الجرأة في مناقشة الممنوع، وكان عليَّ تقبل الواقع الحتمي الذي أعيش فيه؛ لأنه -وللأسف- لا سبيل لتغييره، ولا قدرة لدي على مواجهته، وفي المقابل كنت أرى أخي الذي كان كل شيءٍ أمامه مسموح، فكانت خطيئة الأنثى جريمةً لا تغتفر، وخطيئة الرجل مجرد زلة تستوجب بعض التنبيه والتربيت على الكتف، ولا يمكنني لومهم؛ لأنهم وللأسف الشديد محكومون بأحكام الناس والمجتمع، مستسلمون ومقتنعون بالمسار الذي فرضه المجتمع عليهم، فلم تكن الثورة الأنثوية ممكنة، ولم تكن مستساغة كذلك، ولم تملك الإناث الجرأة على القيام بها،

وحقوق المرأة شيءٌ نسمعه في نشرات الأخبار ولا نراه، والأنثى في مجتمعي لا تبحث عن النجاح بقدر بحثها عن زوجٍ لكي تنخرط به مع المجتمع، حتى أتانا الغزو المعلوماتي الحالي من مواقع التواصل الاجتماعي؛ كالفيسبوك والانستغرام وغيره، واهتمام البعض من الجيل الجديد بالقراءة والثورات العربية التي كانت إحدى آثارها الجانبية كسر حلقة المجتمع المغلقة، والتعرف على ثقافاتٍ أخرى، والهجرة القسرية لبعض البلدان العربية والأوربية، وحملات مناهضة المرأة التي ساهمت بها الأمم المتحدة التي ركزت الضوء بدورها على المشاكل

المجتمعية والعادات المتوارثة، فلنقل بأن المجتمع لم يعد محكمًا قبضته على الأنثى كسابق عهده، أما بالنسبة للانفلات الأخلاقي الحادث، لقد كان متواجدًا في السابق أيضًا، لكنه لم يكن علنيًا، والآن قد حصل الجميع على فرصته لكي يظهر على حقيقته.

أمَّا أنا فلم يكن مسموحًا لي في الفترة التي نشأت فيها لأن أبدو على حقيقتي، أوغير حقيقتي، كنت أمضي في حياتي كما أرادوا لها أن تكون، مسيّرة لا مخيّرة، والمسار مُحدد ومعروفٌ للفتيات الصغيرات في سنّي،

ومن هم في سني -أي سن المراهقة- يُعدُّون أطفالًا، والأطفال عادةً لا يعلمون ما هو الأفضل لحياتهم -على حسب زعم المجتمع- فتتولى العائلة مهمة التخطيط لمستقبلهم، لطالما حاولت فهم هذه المنهجية المجتمعية التي لا تمت للمنطق بصلة، فمثلاً الفتيات في سن المراهقة غير ناضجاتٍ بما يكفي للزواج وتحمل مسؤولية بيت وأطفال، هذا ما يقوله المنطق السليم،

ولكن العرف المجتمعي يقول بأن أي فتاةٍ قد ظهرت عليها ملامح الأنوثة، فهي فتاةٌ ناضجة قابلة للزواج، وهذا لا يعني بأنها ناضجة لكي ترفض الزواج واختيار المسار المناسب لها، وان كان الزواج مثلًا ليس ضمن أحلامها وطموحاتها!

إذًا الفتيات في عمر المراهقة هم أطفالٌ وغير ناضجين، وهذه نقطة نتفق عليها، ولكنهم في سنٍ تسمح لهم بالزواج وتحمل مسؤولية أسرة وأطفال!!

لا بأس، فصامٌ مجتمعيٌ ليس إلَّا.

استسلام الفتيات لهذا المسار المفروض كان يثير استغرابي وامتعاضي أيضًا، بل كنت أجد أن أغلب أحلامهن تتركز عليه، فلِمَا عليَّ أنا أن أكون مختلفة؟

كل ما عليَّ فعله هو أن أكون فتاةً مطيعة، وأن أدخل بكامل أناقتي أمام الخاطبين؛ لكي يقيمونني وكأنني بضاعة يريدون شرائها، ويبدأ التقييم من شكلي أولًا، وإن كنت جميلةً بما يكفي يطيلون المكوث ويبدأون بطرح الأسئلة، أأجيد التنظيف؟ وماذا عن الطبخ؟ وتبدأ بذكر محاسن ابنها التي ربما قد نجدها فيه وربما لا، وتخبرني بما يحب وبما يكره مع إطلاق ضحكةٍ غريبة في أخر كل جملة، أو ابتسامةٍ صفراء لئيمة، ولا أنسى البروتوكول الخاص بتقديم القهوة، فمثلًا عند تقديمي القهوة للخاطبين، على يداي أن تكون ثابتتين جيداً، هذا ما تستمر والدتي في التنبيه عليه؛ لأنه -وعلى حسب قولها- خروج بعض قطرات البن خارجًا تعني أن يداي كانتا ترتجفان، مما يوحي إصابتي بمرضٍ عصبيٍ ما، وأن لا أنسى أداب الحديث، والابتسام كالبلهاء طوال الوقت، وطأطأة رأسي خجلًا عند الكلام،

كنت أدخل في صدامٍ مع والدتي كلما زارنا الخاطبون، لأن رفضي للدخول سيعرضني لكلام الناس الذي لا يرحم على حسب قولها.

هناك فلسفةً خاصة للاختلاف فهمتها لاحقًا، كانت الفتيات في سني تتباهى بزيارة الخاطبين، وكنت أنا أعاني الأمرَّين من ذات الموضوع، كونك شخصية مختلفة في التفكير والميول، سيعرضك ذلك للعزلة والوحدة، وإن كنت مختلفاً في

الشكل، ستتعرض للسخرية والتهميش، إلى الآن لم أفهم هذا المنطق الأعوج في قياس الاختلاف، ولما عليك بأن تنبذ لمجرد أنك لست نسخة طبق الأصل عمَّن هم حولك، لقد كرهت اختلافي لفترةٍ طويلة، وهذا ما جعل حالة الاكتئاب في فترة مراهقتي متأزمة، فرغم أني ولدت في عائلةٍ كبيرة جدًا، كنت أشعر بالوحدة، وذلك لأني لم أجد أية قواسم مشتركة تربطني مع المحيطين بي، لا في التفكير ولا في الميول، ولا في الأحلام،

كان خروجي من المنزل بمثابة عقاب، كنت أفضل قضاء وقتي على الحاسوب، أو في ممارسة الرياضة، كممارسة السباحة في أيام العطلة في مزرعتنا التي استحالت الآن إلى أرضٍ جرداء، أو الاستماع إلى الموسيقى وكان ذوقي الموسيقي وحده مُستغربًا لدى من حولي، كنت أعشق الأغاني الأجنبية الكلاسيكية القديمة، رغم أني لم أتمكن من ترجمتها كلها، وكنت أفضل الأغاني الطربية على الأغاني الشبابية المشهورة.

كم تمنيت لو أنه بإمكاني التعلم على آلةٍ موسيقيةٍ ما، كنت أحلم منذ نعومة أظافري بالعزف على البيانو، وكانت عيناي تلمع إذا ما رأيت أحدهم يحمل آلته الموسيقة على كتفه في الشارع، كنت موقنةً برفض عائلتي للفكرة؛ لأنهم يعدونها سخافةً ونوعًا من المعصية؛ لذا لم أتعب نفسي في طلب أمرٍ كهذا، عندما كنت صغيرةً كنت موقنةً بأن لدي حدسًا ينذرني بالشؤم، لا أعلم تفسير هذا الحدس الذي لم يسعدني بالطبع، فهو لايزال إلى الآن يفسد عليَّ لحظات سعادتي، وفي

كل مرةٍ كذّبت بها حدسي هذا، ندمت، وأذكر بعض المواقف على ذلك.

في أحد الأيام أثناء استعدادي للخروج من المنزل مع والدتي، أوقفنا اتصالٌ من سيدةٍ قالت بأنها تريد زيارة منزلنا ورحبت بها أمي، أذكر يومها أني استشطت غيظًا، وغضبت غضبًا لم أجد له تفسيرًا، وكأن قاتلًا مأجورًا هو الذي سيزور منزلنا، وتشاجرت مع أمي للخروج من المنزل، ولكن والدتي أصرّت على قبول زيارة السيدة، وعندما وصلت تلك السيدة إلى منزلنا

رحبنا بها كما هو مفروض، وبدأت نظراتها في تقييمي كما هو متوقع، الأمر غير المتوقع بالنسبة لي، كان طلبها رؤية بطاقتي الشخصية لكي تتأكد من عمري على ما أعتقد!!

وكانت تلك حماقةً منها؛ لأني أبدو أصغر من عمري المسجّل بالهوية، فقالت لي وهي تهز برأسها "عمرك خمسة عشر فقط يا ريما؟"، قلت لها "نعم، بعد شهرين ستصدر نتائج شهادتي في الإعدادية"، فهزت رأسها مبتسمة، ثم علقت على تقاسيم جسدي فقالت بأن رغم نحافتي الشديدة، فهي تعتقد أني سأكسب الوزن بعد الزواج، كنت أنصت لحديثها باستهجان، واقع أنني صغيرة بالسن لا يعني بأنني غبيّة، لقد كان من الواضح بأنها امرأة شريرة ومتسلطة، أما والدتي فقد كان لديها رأيٌ آخر، أمي امرأة كبيرة في السن، طيبة القلب وحنونة، وكانت زوجةً مثالية لأبي، وتحملت الكثير، وذاقت المر لأجله، وكانت سندًا له في أسوأ مراحل حياته؛ لذا لا أستغرب الحب الكبير بينهما بعد كل تلك السنين، وكان من السهل جدًا كسب قلبها وتأييدها ببعض الكلمات المعسولات، أو كما

يسمونها في اللهجة العامية (تمسيح الجوخ)، ومن أفضل من تلك السيدة الخبيثة بهذا؟ فقامت بالترتيب مع والدتي على اللقاء الشرعي بيني وبين ابنها رغم معارضتي الشديدة،

كان قلبي يعتصر ألمًا، وحدسي الذي لا يخطئ ينذرني بالمصيبة القادمة، ولكن والدتي أصرّت على أن التقيه وجميع من في المنزل حاولوا إقناعي بذلك أيضًا.

كان أسبوعًا حافلًا بالدموع والغضب والتوتر، لم أرغب بلقائه ولكنّي دخلت مجبرة، كلما حاولت النظر إليه، شعرت بثقلٍ في رأسي، وبأن الهواء ينقطع عني، فأكاد أختنق، وحتى حينما قدمت له القهوة عجزت عن النظر في وجهه، على الرغم من أنه لم يكن قبيحًا، وبعد ذهابهم اجتمعت شقيقاتي ليسألنني عن شكل زوجي المستقبلي، قلت لهم

- لا أعرف فأنا لم أره.

= لم تريه؟ ما بالك؟ لقد كان أمامك مباشرة وكان يكلمك.

- أجل، كان أمامي ولم أره، ولا أذكر شكله، ولا أعلم بماذا تحدثنا.

دخلت إلى غرفتي لأمارس حقي في البكاء، كنت أشعر بأنني في كابوس، أردت أن أصرخ وأقول "لا أريد لهذه الخطوبة أن تتم، توقفوا عن إقناعي وإلّا سأنفجر من الضغط"، ولكن كظمت كل هذا، لأنني قد علمت بأن والدي أعطاهم كلمته، وأن أضع والدي بموقفٍ محرجٍ مع عائلة الشاب، كان أمرًا غير مقبول عندي على الإطلاق، سأبقى ابنته البارة مهما حدث،

وسيجد الله لي مخرجًا بالتأكيد، وبعد قراءة الفاتحة وإتمام الخطوبة، حاولت جاهدةً تقبل الواقع الذي فرض عليَّ، سأحاول أن أعطي لهذه العلاقة فرصةً علّ حدسي قد أخطأ، ولكني فشلت ولم أستطع تقبل خاطبي على الإطلاق، وكم كان ذلك يغيظه، فأنا فتاةٌ واضحةٌ للغاية، ولا أجيد التمثيل، فقام بدوره بإمطاري بكلمات الغزل والاهتمام المبالغ فيه، ولكن كل ذلك لم يفلح معي؛ لأنني شعرت بأنه قد اعتاد على معاملة الفتيات بتلك الطريقة، وأنا لست كأي فتاةٍ مرت بحياته، ليس من السهل خداعي بكلامه المعسول ولو كنت صغيرةً في السن، سيحتاج لكسب قلبي بما هو أكثر من مجرد كلمات غزلٍ وورودٍ حمراء، أخبرته مرّة.

- إياك وأن تعاملني كما تعامل بقية الفتيات، فأنا أشبه غابةً استوائيّة يتوسطها بركان، وبركاني يا عزيزي نشطٌ قابلٌ لأن يثور بأيّة لحظة.

قال لي: أعلم بأنك مختلفة؛ لذا اخترتك كزوجة.

يا له من مثيرٍ للشفقة، استطعت بذكائي استدراجه لإخباري بعلاقاته السابقة، الأحمق يظن بأن الله سيمنحه فتاةً بريئة ونظيفة، على الرغم من قيامه بخداع العديد من الفتيات، إنه من أولئك الشبان الذين يرون بأن الفتيات التي تعرفن عليهن ساقطات وغير مناسباتٍ للزواج، فيبدأن البحث عن فتياتٍ نقيات صغيرات للزواج، فالصغيرات لم تتح لهم الفرصة بعد للقيام بأية علاقاتٍ عاطفية، أين ستهربون من عدل الله؟ إنه يمهل ولا يهمل،

كنا أشبه بالزيت والماء، وفكرة مزجنا غير ناجحة، بل مستحيلة.

في حفلة خطوبتنا كنت ممتقعة الوجه، وكل المحاولات في رسم ابتسامة باردة على وجهي بائت بالفشل، صُدم الحضور بشكلي الصغير أمامه،

تبدين طفلةً أمامه يا ريما، أحقاً أبدو طفلة؟! هذا غريب، كيف لي أن أبدو طفلةً، ربما لأني لم أتجاوز الخامسة عشرة بعد؟ أمضيت فترة عصيبة، كنت أرى الكوابيس حتى استعصى علي النوم، أن تدخل في علاقةٍ أنت مجبرٌ عليها، ذلك أشبه باستنزاف روحك؛ لذا من الصعب عليك تقبلها مهما حدث، من السهل بأن تجامل في كلامك، ويستحيل بأن تجامل في مشاعرك، وبعد محاولاتٍ يائسة لاستمالتي، قام بتجربة الطريقة العكسية (الإهمال)، فإن كان اهتمامه لم يؤثر بي، فمن الغباء ظنه بأن إهماله سيفعل، وفي الجهة المقابلة أمه التي لم تترك فرصة في استغلال طيبة قلب والدتي، وكان أحدها حرماني من المبلغ المخصص لكسوتي، كما جرت العادة عندنان بحجة أنها أعلم بما يليق بي، وهي من ستقوم بشراء ملابسي،

يا لخبثها! كنت أعلم بأن الطمع يملأ قلبها؛ لأن أبي في ذلك الوقت كان تاجرًا معروفًا، وهي لن تترك أية فرصةٍ دون أن تستغلها، لم تعلم بأنني كنت بانتظار فرصةٍ أيضًا، ولكن لكي أقلب الطاولة في وجهها، استنجدت يومها بأختي الكبرى (منقذتي الدائمة) التي قامت بدورها بالشجار مع والدته، حيث فسرت فعلتها بأنها من أسرةٍ أصيلة، ومن سكان العاصمة

الأصليون؛ لذا ذوقها يفوق ذوقنا رقيًا، فأجابتها أختي: وهل أنزلكم الله من السماء مغلفين بعلبةٍ أم ماذا؟

أغاظتها تلك الجملة بشدة؛ لذا أرسلت ابنها للشجار معي، ومن ثم مقاطعتي،

فقمت بدوري بإرسال رسالةٍ نصّيةٍ على هاتفه قلت له فيها "أنا فتاةٌ عنيدة، ومن الصعب أن نتفق، ومن الأفضل أن ننفصل".

كانت رسالتي تلك كالصاعقة بالنسبة له، فقام والده بمهاتفة منزلنا، فأجابه أخي وأخبره عن الرسالة، قال أخي أنني طفلةٌ ولا أعي ما أقول، بل كنت أعي ما أريد، وما قلته صادرٌ عن تفكيرٍ عميق، وقرار الانفصال قرارٌ نهائي لا رجعة فيه، ترك أخي يومها مسألة حسم الأمر لوالدي.

سألني أبي: أتريدين الانفصال عن خاطبك يا ابنتي؟

قلت له: نعم.

فقال لي: ما تريدين، سأحدد موعدًا معهم لإتمام الأمر.

لم يسألني يومها عن السبب، أو إن كان من الممكن العدول عن قراري، ولم يحاول التأثير عليّ، كل ما أراده هو أن أكون بخير.

سألني: هل أنت سعيدةٌ الآن؟

فأجبته مبتسمة: نعم.

فقال لي: لن أجبرك على شيءٍ يا ابنتي.

أعتقد بأني كنت وجبةً دسمة لتلك العائلة الجشعة؛ لذا حددوا موعد زفافنا بوقتٍ قصير، وبفضل الله استطعت الإفلات منهم قبل إتمام الأمر، إن تواضع عائلتي أعطاهم الدافع للاستعلاء علينا، رغم أننا نفوقهم مالًا وثقافةً وأخلاقًا،

فالأشخاص الفارغون يعقدون بأن أبسط الأشياء التي يملكونها موضعٌ للفخر.

لا أنسى دموعه أمامي وانكساره يوم انفصالنا، رغم أنه عرفني لمدةٍ قصيرةٍ جدًا، ولكن يبدو بأنني استطعت التأثير فيه، غروره لم يمنعه من البكاء أمامي، لقد كان يتجنب النظر في وجهي، وكم كانت دموعه تشعرني بالفخر والسعادة، شعرت بأني يومها أنتقم لكل النساء اللواتي قام هو بكسر قلوبهن.

والآن أصبحت طفلةً نصف مطلقةٍ بالعرف المجتمعي دون أن أتزوج، وهذا لا ينذر بالخير، بسبب تلك العلاقة الفاشلة التي دامت لمدة شهرٍ فقط، توقفت عن الدراسة، فقد حددوا موعد الزفاف بوقتٍ قصير، فكان من المنطقي أن أترك دراستي حينها، لقد أقنعوني بأن خطبتي خلفت عيبًا بي، فلذلك لم أعد معارضة لفكرة الزواج، وذلك لأن هناك تقييم مجتمعي خاص للفتيات، فمثلاً الأفضلية في الاختيار للفتيات ما بين الخامسة عشرة حتى السابعة عشرة، ويشترط الجمال والقوام الجيد في المرتبة الأولى، ومن بعدها يأتي دور الأخلاق ومهارتها في التنظيف والطهي، وإن كان الشاب يملك شهادةً ما، يضيف إلى كل تلك الصفات أن تكون فتاةً جامعية، أو أنهت دراستها الثانوية على الأقل، على ألّا يزيد سنها عن التاسعة عشرة،

وتعامل من فسخت خطبتها سابقًا على أنها أقل قيمةً من باقي الفتيات في سنها، وإن كانت ذات جمالٍ، فجمالها سيشفع لها قليلًا، ومن تجاوزت العشرين تعامل معاملة العانس، ويشعرونها أنها بضاعة منتهية الصلاحية، فتقل زيارة الخاطبين لمنزلها، إلّا إن كانت فتاة جامعية في تخصصٍ عالٍ كالطب أو الهندسة،

فتساعدها دراستها لتحظى بنصيبٍ جيد، وقد تسري هذه الشروط في بعض المجتمعات فقط، وقد تختلف في مجتمعاتٍ أخرى.
بالنسبة للمجتمع الذي نشأت فيه، قد كانت هذه الشروط سارية، وإن تمعنت قليلًا بالتفكير، ستدرك أنها لا تمت للمنطق بصلة، ولا للدين كذلك، ومع هذا نرى أن شروط المجتمع غير العقلانية سارية أكثر من الفرائض التي فرضها الله علينا، يمكننا أن نسميها (دين المجتمع)، فبغض النظر عن الدين الذي تتبعه، أو إن كنت متدينًا أم لا، ستتبع ديانة المجتمع رغماً عنك، وستخاف مخالفة شروطه وقوانينه؛ لأن جحيم الله مؤجل، وجحيم المجتمع معجل، رأيت أصنافًا من النفاق في ذاك المجتمع، رجالًا لا تقرب الصلاة، ومدمنين على الكحول، ويرتكبون أصنافًا من المعاصي، والبعض منهم لا يصوم شهر رمضان ولا يزكي، ومع ذلك ينقبون زوجاتهم ويأمرونهم بالطاعة، ويتسلحون بأحاديثٍ صحيحة عن واجب طاعة المرأة لزوجها،
وعن أحقيّة الرجل التي شرعها الله له في تعدد الزوجات.
يستخدمون الدين كشماعةٍ ليجيزوا لأنفسهم استعباد المرأة، والله لو كانوا اتبعوا الدين حق اتباعٍ كما شرّعه الله ورسوله، لما وجدنا امرأة تعاني،
ولكنهم يأخذون من الدين ما يعجبهم ويتركون الباقي، فلو أراد أحدهم الزواج بقاصرٍ حتى ولو كانت لم تتم الثالثة عشرة، يستشهد بزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- بالسيدة عائشة، وعندما يعاير امرأة بتقدمها في السن أو بوضعها الاجتماعي في

حال كانت أرملة أومطلقة، يتناسى زواج سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- من السيدة خديجة، ولأنني جزءٌ من هذا المجتمع، كان لي نصيبًا من المعاناة بسبب قوانينه غير المنطقية

مضت أربعة شهورٍ بعد فسخ خطبتي، كنت بها في حالة استسلامٍ تام،

فما دام هذا مصيري المحتوم في النهاية، إذًا علي اختيار أفضل الفرص المتاحة أمامي، هذا ما كنت أخبر نفسي به، في هذه الأثناء كان خبر انفصالي قد وصل إلى إحدى قريبات والدتي؛ لذا وردنا اتصالٌ منها، أخبرتني والدتي بأنها دبرّت لي ولابنها لقاءً غريبًا من نوعه؛ لنتعرف على بعضنا، إن حدث بيننا إعجاب متبادل سيتقدم لخطبتي، واشترطت على أمي ألّا تخبرني بأمر الخطوبة حرصًا على مشاعري في حال لم يتم القبول، ولكنها أخبرتني بالطبع، وهي أيضًا ستفعل ذات الشيء مع ابنها، ولكنها أخبرته بالطبع، كانت تمثيليةً ممتعة وغريبة، وكانت مرضية جدًا بالنسبة إليَّ، لأني كنت أكره الطريقة التقليدية في الخطوبة، كنت أشعر وكأني بضاعة تباع وتشترى، إضافةً إلى أن شرطها هذا يدل على نبل أخلاقها وارتفاع وعيها، وهذه بداية جيدة على ما أعتقد، وقد تم تدبير لقائنا في بيت إحدى قريباته، فبيتها هوالأنسب؛ لأنه في نفس الحي الذي نسكنه، وأمي قد اعتادت التردد لزيارتها من وقتٍ لآخر، كانت سيدةً لطيفة، أو هذا ما كنا نراه منها، وقد أخذت درسي بألا أثق بما أراه، وذلك لأن الخيبة بما نثق مؤلمة وألمها ربما يفوق أي ألمٍ آخر.

يوم لقائي به كان الطقس لطيفًا، ذلك الطقس ما بين نهاية الشتاء وبداية الربيع هوالمحبب لقلبي دائمًا، الطرقات كانت نديّة، ورائحة المطر تعبق في الأرجاء، ظننتها بدايةً جيدة لمنعطفٍ جديدٍ بحياتي، وكما يقال "بعض الظن إثم".

حينما دخلت رحبوا بنا بحفاوة، أمي إمرأة اجتماعية مع الجميع، عكسي تمامًا؛ لذلك كنت أجد لديها الكثير من المعارف في كل مكانٍ نذهب إليه، أنا فتاةٌ اجتماعية ولكن بشكلٍ انتقائي، لا يمكنني بدء حديثٍ والاسترسال مع أشخاصٍ بعيدين كل البعد عن شخصيتي، أحتاج معهم بعض القواسم المشتركة، لا أحتمل أحاديث النساء المستهلكة، مثل حديثهم عن الأطفال والطبخ، وشراء الحاجيات والأسعار، وأحاديثهم عن حياتهم الزوجية،

كنت أنعت بالغرور لذلك، مع أني لم أكن كذلك، إنما لا أستطيع المشاركة بأحاديثٍ مستهلكة لا فائدة ترجى منها.

بعد أن انتهوا من استقبالنا، دخلنا إلى إحدى الغرف، وكان هو بدوره هناك ينتظرنا، كان وسيمًا، ملامحه بريئة، يبدو طالبًا في المرحلة الثانوية، رغم أنه قد أنهى دراسته الجامعية، بتسريحة مدرسية أيضًا، عيناه جميلتان جدًا، تأملت كل ذلك دون أن يلاحظ، كان عليَّ الحفاظ على كبريائي في حال كان الرفض من عنده هو، فأنا لن أمنحه لذة رفض فتاة مثلي، كان ينظر إليَّ ويتأملني بخجل، يبدو أن علاقاته الأنثوية معدومة، استمر في النظر إليَّ ريثما أحادث أخته عن مخططاتي في استكمال دراستي في المنزل، حتى أحضرت لنا قريبته القهوة، يبدو أنّه ضاق ذرعًا بتجاهلي إياه؛ لذا أخذ القهوة منها ليقدمها

لنا بنفسه؛ كي يجبرني على النظر في وجهه، قلت في سرّي وقتها "انتبه لكي لا تتساقط قطرات البن على الصحون، كي لا يظنوك مصابًا بمرضٍ عصبيٍ ما"، فكرة تبادل الأدوار تلك كانت تروقني، ليتنا نتبادل الأدوار في بعض الأمور، لربما حصلت النساء على بعض الإنصاف في هذا المجتمع، لو أن الرجال مثلًا تجرب ألم الولادة أيضًا، ترى لِمَ لمْ يختر الله الرجال لولادة الأطفال، رغم أن بنيتهم الجسدية أقوى من الأنثى، لا أظن بأن هناك رجلًا قد يصبر على آلام الحمل والولادة والسهر على تربية الأطفال، لقد منح الله الأنثى قوة الصبر ليعوضها عن قوة الجسد، حين أخذت فنجاني، كنت حريصةً كي لا أمنحه لذّة الوصول لغايته، فلم أنظر إليه رغم أنه تحدث إليَّ ممازحًا، هممنا بالخروج، ووقف أمام الباب متأملًا إياي وأنا أرتدي حذائي، كان ينظر إليَّ مبتسمًا، ثم يعاود النظر إلى الأرض بسبب تجاهلي لنظراته، وتابعت التحدث إلى أخته طوال الطريق، بينما عيناه تترصدني وأنا أبتعد.

هاتفتنا والدته بعد يومين لتحديد زيارةٍ رسمية لمنزلنا، وسألتني أمي: ريما؟ هل أعجبك الشاب؟ هل أعطيهم الإذن بالزيارة؟

كانت علاقتي بوالدتي في ذلك الوقت متوترة نوعًا ما؛ لأنني حملتها مسؤولية ما حدث معي في خطبتي السابقة؛ لذا أظنها حاولت جاهدة هذه المرة ألَّا تؤثر على قراري.

- أجل أعجبني، اعطِهم موعد لزيارتنا.

لم أجد سببًا للرفض، فقد كان وسيمًا مثقفًا، ومهذبًا ومن عائلة راقية، إنه بلا شك أفضل الخيارات المتاحة التي تقدمت لي، أو هذا ما ظننته حينها.

بعد موافقتي بيومين، زارنا والده كي يكون كل شيءٍ على حسب الأصول،

استمر والده بقول أنني أصبحت ابنته، وقطع الوعود بالاهتمام بي وكأنني ابنته، لقد كان بارعًا في قطع الوعود، وفاشلًا في الإيفاء بها!

وتم الأمر بسرعةٍ لم أتخيلها ولم أستوعبها، في ظرف خمسةٍ أيامٍ فقط تمت الخطوبة، أقمنا حفلةً بسيطة، حضر بها بعض الأشخاص المقربين جداً من كلا العائلتين، كنت متوترة جداً، ولكن سعيدة.

قبل دخوله للقائي، سمعت أن والدته لم تسمح له بالدخول حتى تحدثه بأمرٍ ما، شعرت ببعض الفضول لمعرفة الحديث الذي دار بينهم في هذا الوقت الغريب؛ لذا سألت شقيقته.

- ما الأمر يا غدير؟ لما لم تسمح أمك لنسيم بالدخول؟ هل هناك مشكلة؟

- لا أبداً، لا تشغلي بالك يا عزيزتي، كل ما في الأمر أن أمي لم تخبره عن خطبتك السابقة؛ لذا وجدت بأنه من الأفضل أن تخبره الآن.

- وما هي ردة فعله بعد أن علم بالأمر؟

- لقد أخبر والدتي بأن خطوبتك السابقة لن تنقص من قيمتك شيئًا بالنسبة له.

قلت في نفسي "خطبتي السابقة لن تنقص من قيمتي بالطبع، ولكن إجابته هذه بالتأكيد سترفع من قيمته عندي"، وبعد أن أنهى حديثه مع والدته، دخل للقائي، فشعرت يومها بأن قلبي قد تسارعت دقاته وارتبكت، اقترب مني وجلس بجانبي، كان ينظر إليَّ وكأني وحدي في المكان، رغم أن المكان كان مكتظًا، أصوات أحاديث الناس مع الموسيقى خلفت بعض الضوضاء، أما أنا لقد ضممت كفاي ببعضهم وأبقيت نظري للأسفل، شعرت بأني مغيبة عن الواقع، لا أدرك ما الذي يدور حولي، كانت أفكاري عشوائية غير مفهومة، حتى أمسك يدي فجأة، نظرت إليه باستغراب، ثم قمت بسحبها، فعاود إمساك يدي، وأخبرني بألَّا أسحبها مجددًا، قلت في نفسي "يا الهي، أين ذهب خجلك، ألم تكن خجولًا في لقائنا السابق"، أحضروا لنا خاتمي الخطوبة، وقمنا بوضعها لبعضنا، وقبَّلني من جبيني، أغمضت عيناي بشدة حتى ينتهي الأمر، بعد انتهاءهم من مباركتنا منحونا مساحة خاصة بمفردنا، وبدأنا الحديث معًا لأول مرة.

- ريما!

- نعم؟

- أتعلمين، أنا لا أجيد التحدث مع الفتيات، فما رأيك لو تبدأين الحديث أنتِ.

- ومن أخبرك بأني أجيد التحدث مع الشبان؟

- ظننت بأنك تملكين بعض الخبرة من خطوبتك السابقة.

- لا أعلم إن كان على تلك الخطوبة بأن تحسب لي، لقد زارنا ذاك الشاب ثلاث مراتٍ فقط!

- قالت لي خالتي حينما حضرت خطوبتك السابقة أن ملامح الحزن كانت واضحةً عليكِ، وكان يبدو أنكِ مجبرةً على تلك الخطوبة.

- أجل، كنت مجبرةً نوعًا ما، اصنع معروفًا، فلننسَ أمر خطوبتي السابقة،

أيمكننا هذا؟

- حسنًا أيتها المغرورة.

- مغرورة؟

- لماذا كنتِ ترفضين النظر نحوي في لقائنا الأول؟

- وهل كان علي أن أنظر؟

- كنتِ تعلمين السبب الحقيقي خلف لقائنا، أليس كذلك؟

- أجل، بالطبع، كانت تمثيلية ممتعة، يقولون بأن الاستغباء لعبة الأذكياء، ثم أنها عادةٌ عندي بألّا أعطي بالاً للشبان أمامي مهما بلغت وسامتهم.

- سأخبركِ سرًا.

- ما هو؟

- أردتُ الانتقام منك وكسر غرورك حالما تتم الخطوبة.

- اسمع يا نسيم، لست مغرورة، إنما فتاة تحترم كبريائها، فلا تجعل الأمر يختلط عليك، وأعتقد أنه لم يكن عليك إخباري بمخططك الشرير هذا، وبما أنك قد أخبرتني، فهذا يعني شيئًا واحدًا.

- ما هو؟

- لقد نزعت فكرة كسر غروري والانتقام من رأسك، أليس كذلك؟

- حالما رأيتك نسيت فكرة الانتقام أصلًا، تشبهين الملائكة، في هذا الفستان وبشعرك المفرود، كيف أنتقم من ملاك؟ أتعلمين، تجاهلك لي يومها ورفضك النظر إليَّ جعلني أظن أنني لم أعجبك، توقعت أنك لن توافقي،

يجب ألَّا أخبرك بهذا، لكن في الحقيقة لقد قضيت الليلة أصلي وأدعُ الله بأن تقبلي بي.

استغربت كلامه، وأعجبني ما فعل، لم أكن أتخيل بأن هناك رجلًا سيصلي طيلة الليل لأكون من نصيبه، ليس انتقاصًا مني، إنما مسألة الحب تلك وخاصة من أول لقاء، لا أؤمن بها، مع أنهم يقولون بأن مرحلة المراهقة أنسب فترة لكي تكون مشاعر الفتاة فيها متقدة، وسريعة التأثر بهذه المواقف.

التقينا مجددًا بعد أربعة أيامٍ، دعاه والدي لمرافقتنا إلى المزرعة، كان الربيع مقبلاً، والطرقات اكتست بالعشب الأخضر، زهور الربيع البيضاء والصفراء ملأت الأرجاء، أشجار المشمش قد ورّقت، وثمار الكرز توشك على النضوج، وشجرة اللوز المفضلة عندي قد أثمرت.

اجتمعنا للحديث وشرب الشاي على أطراف الحديقة، رائحة التراب النديّة منعشة، وهناك فراشاتٌ بيضاء تحوم في المكان، كنت لأستمتع بكل هذا، إلَّا أن حدسي المشؤوم قد ظهر على الواجهة فجأة، استمعت لحديثه مع أمي، فانقبض قلبي فجأة وأصابني الرعب، حاولت تمالك نفسي، حاولت عدم البكاء، ولكن لا فائدة، تدفقت دموعي بطريقةٍ غريبة، حاولت الهرب بعيدًا لأخفي وجهي وأكفكف دموعي، جلست أسفل شجرة اللوز وغطيت وجهي، كان حدسي يخبرني بأن

هناك جحيمًا ينتظرني، مع أن نسيم يبدو لطيفًا وبريئًا كالأطفال، كيف أصدق حدسي؟
رفعت رأسي، فوجدته ينظر إليَّ باستغراب.
- عزيزتي ريما، ما الأمر؟ هل فعلت شيئًا خاطئًا، إن كنت قد فعلت دون أن أدري، فأنا أعتذر، لكن أرجوكِ توقفي عن البكاء.
- لا عليك يا نسيم، أنت لم تفعل شيئًا، سأتوقف عن البكاء حالًا، أنا آسفة حقًا.
- لندخل يا ريما، لقد بدأت تمطر.
- يا إلهي، لقد كان الجو مشمسًا منذ قليل، إنه طقسٌ غريب، انظر يا نسيم إلى قطراتِ المطر المتساقط على صفحة ماء حوض السباحة، وكأنها لوحةٌ فنية من إبداع الخالق -عز وجل- منظرٌ رائعٌ حقًا.
تعانقت أيدينا، وراقبنا المطر حتى توقف، ثم هممنا بالعودة للمنزل
- أتعلمين يا ريما، لقد كانت دموعك كخنجرٍ في صدري، كنت عاجزًا أمامها، لا تبكِ مجددًا أرجوك.
اليوم يا نسيم، اليوم استرجع جملتك هذه وأضحك، كم تلذذت بدموعي لاحقًا، وكم من مرةٍ تركتني وخرجت وأنا في أوج انهياري، رغم أني قمت بتنبيهك مرارًا، إياك وأن تتركني وأنا منهارة، لا تدر ظهرك عني، احتويني يا نسيم، احتويني كما احتويتك، كنت تخبرني عن طفولتك التعيسة، فكنت أحاول تعويضك عمَّا عانيته.
- أبي يا ريما، أنا خائفٌ منه.

- لماذا؟
- صدقيني سيفسد سعادتنا كما أفسد طفولتي.
- ماذا تقصد؟
- يخبرني بأنني فاشل، وكم أكره تلك الكلمة، أكره كلمة فاشل، تصيبني بالجنون، مهما فعلت لا أرضيه، مهما بلغت من نجاحٍ لن أعجبه.
- أنت مخطئٌ يا نسيم، بالتأكيد سيسعد لنجاحك.
- أنتِ ساذجة يا ريما، لا تعرفينه كما أعرفه، أتذكر أنني حينما تفوقت في دراستي وحصلت على المركز الثاني على الجمهورية، لم يكلف نفسه لقول مبروك! أخاف أن أخطئ، لأن ردة فعله لا تطاق، وابلٌ من الشتائم والكلام الجارح الذي يقوله لي، يعامل موظفيه الغرباء أفضل من معاملته لابنه، أتتخيلين ما أقول؟ الموظفون في المكتب راتبهم أفضل من راتبي، بل إنه يحترمهم ويحتقرني أمامهم.
- لا عليك يا نسيم، سيعوضك الله، لا تحزن.
- لقد عوضني الله حقًا يا ريما، لقد عوضني بك.

لذا كنت أفرط في حناني عليك، أردت تعويضك واحتواء حزنك، الحنان أكثر الصفات التي استغليتني من خلالها، في كل مرةٍ نتشاجر فيها، كنت تلعب على وتر حناني؛ لأتنازل لك، بل وتتصرف تصرفات طفولية غير منطقية؛ لتأخذ ما تريده مني، ولكي تخضعني لإرادتك.
قيل أن فهم الإناث وإرضاؤهن صعب، بل من الممكن أن يكون من المستحيلات، لكن أين الصعوبة في أن تكون رجلًا؟

إن جلُّ ما نطلبه هوأن تكون رجلًا لنا لا علينا، خمس دقائق من الشعور بالأمان والطمأنينة بقرب رجلٍ حقيقي، قادرٌ على احتواءنا، تستطيع منحنا سعادةً لا يمكن مقارنتها بأي شيءٍ آخر، وحبذا لوتتوقفون عن دفعنا للبكاء،

تقولون بأن الإناث يبكين دائمًا بسبب أو بلا سبب، من الحماقة ظنكم بأنه من الممكن لأحدهم أن يبكي بلا سبب، إلّا إن كان ممثلًا بارعًا، وبالنسبة للتمثيل، أعتقد بأنكم تفوقونا براعةً في هذه الموهبة.

بعد حديثي معك، كنت قد استثرت حناني، فقررت إسكات حدسي، وإعطاؤك فرصةً، علّني أجد الحب معك، الحب الذي كنت أجهله ولم أعرفه معك، ظننت أني أحببتك، ولكن فكرة التخلي عنك كانت قائمةً في كل الأوقات، وهذا ما كان يثير غضبك دومًا، كنت تقول لي "لماذا تطلبين الطلاق في كل مرةٍ نتشاجر فيها".

هل لحبنا قيمةً عندك؟ هل عليك لومي على هذا، أنتَ من كنت تدفعني للتخلي عنك في كل مرة، الحب الذي نستطيع التخلي عنه بسهولة ليس حبًا،

يقولون الغيرة دليلٌ من دلائل الحب؛ لذا ظننت بأن غيرتي المجنونة عليك دليلاً على حبي لك، ولكني كنت مخطئةً، أنا من الأشخاص الذين يملكون رصيدًا مرتفعًا من الكرامة والكبرياء، فاستطعت تفسير غيرتي عليك بأنها نوعٌ من التملك.

كيف لك أن تنظر لغيري وأنا في حياتك؟ ألستُ كافية؟ أن تثيرك فتاةٌ غيري ذلك يعني بأني لا أكفيك؟ وتلك إهانة يا نسيم، إهانةٌ بحقي.

كان عليك مخافة عدم غيرتي عليك؛ لأن غيرتي تعني أيضًا بأن لك قيمة عندي، أظن بأن علاقتنا كانت لتنجح أكثر لو كنا أصدقاءً فقط، البراءة التي امتلكتها في بداية معرفتي بك كانت تعجبني، لن أنسَ أول رسالةٍ أرسلتها لي، كانت سبع صفحاتٍ من الحجم الكبير، صُدمت لحظة رؤيتها، وجلست أفكر كم من الوقت استغرقته في كتابتها، كنت تخبرني شعورك تجاهي، كان يبدو بأنك أخرجت قلبك على الورق، كنت تمتلك قلبًا طفوليًا شفافًا ونقيًا، أظن بأنك أحببتني! هل فعلت؟ نعم لقد أحببتني، ولكن رصيد الأنانية لديك كان مرتفعًا أكثر من رصيد الحب، كنت تتمسك بالـ (أنا أولًا) بشراسةٍ، والحب بحاجةٍ للتمسك بـ (أنت أولاً) بشراسة.

البدايات خداعة دائمًا، أي لن يأتيك أحدٌ ليخبرك بأنه شخصٌ سيء، أو سيتحول إلى شخصٍ آخر سيءٍ، أو سيقوم بتمزيق قلبك في المستقبل!

بالطبع لن يفعل، ومن كان يتوقع بأن ذاك القلب الطفولي الذي عرفته سيصبح جاحدًا؟ ومَن كان يتوقع بأن ذاك الشخص اللطيف، سيقلب حياتي إلى جحيم؟

بالعودة إلى الماضي الذي عشته معك، أحاول استحضار ذكرياتنا في كل تلك السنوات، الكثير من ذكرياتنا أصبح ضبابيًا وغير واضحٍ في ذاكرتي،

ربما هي نعمةٌ من الله أني لا أذكر تفاصيل بؤسي في جحيمك بشكلٍ واضح، كل ما أذكره معك هو لحظاتٌ من الغضب، البكاء، الخوف، انعدام الأمان، والتوتر طوال الوقت، عدا ذلك لا أستطيع تذكر جميع اللحظات التي عشناها معًا، خاصةً السعيدة منها، أظن بأن الذكريات المؤلمة قد مسحت ذكرياتنا الجميلة، فمن غير المنطقي بألَّا تكون بيننا بعض اللحظات الجميلة، أليس كذلك؟

فترة الخطوبة، يُقال بأنها من أجمل فترات العمر، هذا ما كنت أسمعه من الفتيات الأخريات، بأنهم يتمنون دائمًا لو يعود بهم الزمن إلى فترة الخطوبة، فهي -على حسب زعمهم- أفضل فترة في حياتهم، لم تكن كذلك بالنسبة لي!

في فترة الخطوبة، كان نسيم كثير التردد على بيتنا، وكان يطيل المكوث، ولأني من عائلةٍ محافظةٍ جدًا؛ لم يكن مسموحًا لي ببقائي معه وحدنا، مما كان يسبب لي المشاكل والإحراج مع أسرتي؛ لأن وجوده يقيد حركتهم، كان يحب إمضاء الوقت مع أسرتي؛ لأن -على حسب زعمه- نظام المعيشة في بيتهم صعبٌ، وأشبه بثكنةٍ عسكرية.

- نسيم، ألا تجلس مع عائلتك؟ ألا تمضون وقتكم معًا؟ كلما اتصلت بك قالوا بأنك في غرفتك!

- الوضع في منزلنا مختلف عنكم يا ريما، خاصةً عندما يكون والدي في المنزل، كل شخصٍ يمضي وقته في غرفته؛ لذا أحب أمضاء الوقت مع أسرتك.

- غريبٌ أمركم، نحن نمضي أغلب وقتنا معًا رغم أن أسرتي كبيرة جدًا مقارنةً بأسرتكم.

- رابط الحب مفقودٌ في أسرتنا يا ريما.
- كيف ذلك يا نسيم؟
في عائلتنا كل شخصٍ يهتم بنفسه فقط دون غيره، فمثلًا أنا لا أرى أعمامي إلَّا في العيد، رغم أننا نقطن في نفس المنطقة.
- لكن يا نسيم العائلة نعمة، في كل يوم جمعة تجتمع عائلتي كلها في المزرعة، يزورنا أعمامي وأولادهم وأحفادهم، رغم أن عائلتي ضخمة بحق، ولوأصاب أحدنا مكروهٌ -لا سمح اللّه- ستجد الجميع يهتمون لأمره حتى تنقضي أزمته.
- لهذا قلت لكِ فلنتبادل الأسر، ولأن ذلك مستحيل، فأنا أحب إمضاء الوقت في بيتكم.
لطالما ظننت بأن نسيم يبالغ في وصف أسرته، فأنا لم أكن قد تعرفت على العالم الخارجي بعد، عالمي الوحيد كان أسرتي.
فور انتهاء فترة الخطوبة، فتحت أمامي أبواب الجحيم بالتدريج، شعرت بأني وُضعت في مكانٍ لا أنتمي إليه، كنت متزعزعة الشعور، غارقةً في مسؤولياتٍ لم أعتدها ولا تناسب عمري!
لم يسبق لي أن قمت بالطبخ، ولم أكن أجيد الاعتناء بالمنزل، حتى أني كنت أصاب بالكدمات نتيجة اصطدامي بأثاث المنزل، منزل عائلتي كان بالغ الكبر، ومنزلي الجديد بالغ الصغر، أشبه بالسجن، حتى أصابني المرض، فلم أقوَ على النهوض، خروجي من المنزل كان ممنوعًا، حتى لو كان من أجل زيارة عائلة زوجي في الشارع المقابل، كان لابد من وجود مرافقة، وكأن أحدهم يترصد خارجًا؛ ليقوم بخطفي، أو ربما سأقوم بالهرب لو خرجت وحدي، أو ربما أنا غبيةٌ لدرجة أني قد أتوه في مسافة مائة متر،

ولكي يثبت والد زوجي سيطرته عليّ، أجبرني على أن أغطي وجهي بغطاءٍ أسود.

- نسيم، لا أصدق، ما شأن والدك بلباسي؟

- لا بأس يا ريما، لا تجلبي المشاكل لنفسك!

- اسمع يا نسيم، لن أغطي وجهي، إن لباسي لباسٌ شرعيٌ أصلاً، ثم ما شأنه هو بحياتي وملبسي؟

- اهدأي يا ريما، ضعي غطاء الوجه فقط عندما نزورهم، هل أنتِ راضية؟

- أنت لا تفهمني يا نسيم، مشكلتي ليست بغطاء الوجه، مشكلتي بإجباره لي على وضعه، المشكلة مشكلة مبدأ.

- كفى يا ريما، لقد صدعتِ رأسي.

استسلام نسيم لتحكم والده بي، كان يصيبني بالجنون، أنا فتاة عفوية، لم أعتد بأن أكون مقيدة اللباس لهذه الدرجة، ومقيدة الأفعال، وسجينة داخل علبة من الكبريت، هل العفوية صفة مذمومة؟

هذه الصفة تسببت لي بالمشاكل معهم، فكلامي العفوي النابع عن طيبتي، كانوا يسيسونه في معانٍ أخرى لم أقصدها!

ولم يقتصر إجبارهم لي على غطاء الوجه، فيبدو أن لديهم بروتوكولات أخرى للإجبار، كتقبيل يد والد زوجي صباحاً ومساءاً وفي كل فرصة! ويبدو أن عدم فعل ذلك سيعرضني للمشاكل.

قبل زواجي أذكر بأني كنت أقبل يد والدي بالأعياد فقط، وكنت أنسى فعل ذلك أحياناً، ولم أذكر بأنه كان يغضب في حال نسيت، كان يجب أن أتعلم النفاق لأتعايش مع تلك الأسرة،

حاولت ذلك وفشلت؛ لأن النفاق لا يمكن تعلمه إن لم تنشأ عليه منذ صغرك.
كان يصدمني حجم النفاق الذي يمكن أن يصل إليه الناس، فقط ليرعوا مصالحهم. كم من العهود التي قطعها والده على والدي بأنه سيرعاني كابنته، ثم اكتشفت بأنه يقسم بأطفاله كذبًا؛ ليكسب تأييد الناخبين، ليس هذا فحسب، كان يعد كل ما أمتلكه من حقه، وله حرية التصرف به.
بعد بضع شهورٍ أخذ مني كل ما أمتلكه من ذهب، قال بأن زوجي استدان منه مبلغًا من المال، وأخذ ذهبي عوضًا عنه، رغم أنه كان ثريًا، ولم يكن بحاجة للمال، وقف زوجي عاجزًا كعادته، بل وذرف الدموع تأسفًا، عانقني واعتذر لي، نظرت إليه بتعجب، من قال أني أريد دموعك أو اعتذاراتك؟
كن رجلاً وامنعه، كن رجلاً، أين الصعوبة في أن تكون رجلاً، أين حبك المزعوم إن لم تستطع حماية حقي من والدك؟
أردتك أن تحميني، أن تقف بجانبي، أن تسندني، جميعكم ماهرون في الكلام، إن كنت عاجزًا عن هذا، كان الأولى ألّا تتزوج.
يومها عجزت عن التفكير، بكيت بدموعٍ مكتومة، اختنقت، أسئلة كثيرة تداهم أفكاري، ما التالي يا ترى، هل أخبر عائلتي بما حدث لي في تلك الأشهر القليلة، يا إلهي، ماذا سيقولون؟ هل سيطلقونني منه؟ وأن تطلقت، ماذا سيقال عني؟ لن يرحمني الناس من أقاويلهم؟ سيوصمونني بالعار، لم أستطع إخبارهم يومها، اخترعت الأكاذيب لإخفاء الأمر، فهمت خطأي لاحقًا، إنه من الخطأ أن تتنازل وتصمت عن حقك؛ لأنك بهذا

تكون قد جعلت استنزاف حقوقك، وإذلالك حقًا مكتسبًا، علمت بأنه سيكون هناك الكثير لاحقًا، كل ما في الأمر أنني لم أكن ناضجةً بما يكفي لأجيد التصرف، وكنت محقة، فهو لم يكتفي بسلب الذهب، لقد سلبني بيتي أيضًا، أخذ ما أراد منه، ورمى الباقي في مكانٍ بعيد، وأجبرني على الإقامة في منزله، كان يعيش على تقليل قيمة كل من حوله، ويتهمهم بالغباء والفشل، وكل ما يهمه هو مظهره الذي يظهر به أمام الناس، بذلات مخملية، نظارات شمسية، سيارات فارهة، والإتكيت في التعامل مع الغرباء.

فهمت شخصيته الغريبة لاحقًا، وفشلت في التعامل معها، كان مصابًا بجنون العظمة، والأشخاص المصابون بجنون العظمة يقتاتون على تقليل شأن من حولهم، وعليك تعلم (تمسيح الجوخ) لكسبهم، وأنا فاشلة في (تمسيح الجوخ)، فهو ليس من سجاياي، أما نسيم، يبدو أن لعنة الفشل التي ألقاها والده عليه، كان لي النصيب الأكبر من آثارها الجانبية، لقد فشل حقًا بكل عملٍ قام به، وكان يصب غضبه علي نتيجة فشله. أذكر بأننا كنا نتشاجر بلا سبب، أو بالأحرى كان يشاجرني بلا سبب، خاصةً حينما يخطئ، كانت طريقته غريبةً في الدفاع عن نفسه، حيث كان دفاعه عن نفسه عن طريق إدارة دفة الخطأ تجاهي. يحاسبني أنا على أخطائه هو! وإن ناقشته يتحول إلى العدوانية، حينما صفعني أول مرةً كنت حاملاً بطفلي في الشهور الأولى.

إلّا كرامتي يا نسيم، إلّا كرامتي، سأغفر لك زلاتك، ضعفك، قلة حيلتك، تجاهلك، ولكن أجن إذا ما تعلق الأمر بكرامتي!

صُعق حينما تركت المنزل، واعتذر كثيرًا لعائلتي، ونشر لي اعتذارًا كبيرًا على صفحتي في الفيسبوك، ظننت بأنني لقنته درسًا ولن يعود لأفعاله السابقة، ولكن كان ظني خاطئًا، ويبدو أن بلدي كان لها نصيبًا من الشؤم أيضًا، فيما سُمي ***"الربيع العربي"*** إن صحت تسميته بهذا الاسم، فأنا أظن أن ***"الخريف العربي"*** يليق به أكثر، ما أعرفه عن الثورات، أنها وجدت للإصلاح، كالثورة الفرنسية التي يُقال أنها غيرت وجه العالم الأوربي والغربي، حيث انتهت بإلغاءٍ مطلقٍ للحكم الملكي، وإحقاق بعض الحقوق للطبقة الكادحة والعاملة، حيث أسقطت الملكية، وأسست الجمهورية، وألغي قانون الإقطاع، يُقال بأن الثورة تلك تحولت لنظامٍ استبدادي، ولكنها أعطت بعض الحريات والحقوق للشعب، الأمر عندنا مختلف، فالثورات خلّفت دمارًا، ولم تخلف صلاحًا.

لقد رفضتُ هذه الثورة بشدة في البداية، وبعدها أخذت موقفًا حياديًا حيال ما يحدث، من الحماقة التسترُ على أخطاء حزبٍ معينٍ لمجرد أنك تؤيده، كان علينا إعلاء راية الوطن أولاً.

كان زوجي يخرج في أيام الجمعة مجبرًا مع أبيه إلى مقر الحزب، وقد وصلني لاحقًا تنبيهٌ من المعارضة أن دمه ودم أبيه سيهدر إن بقيّ على تلك الحال، في الماضي كان يوم الجمعة يومًا مميزًا نقضيه في المزرعة، نقيم حفلات الشواء ونقطف الثمار، أو نقوم ببعض الرحلات إلى بعض الأماكن الطبيعية الخلابة

التي تزخر البلد بها؛ لذا من المعروف أن يوم الجمعة هو يوم الاستجمام، ننتظره بفارغ الصبر، خاصةً في أيام الصيف.

بعد اندلاع الثورة أصبحنا نخاف يوم الجمعة، ونخاف الخروج من المنزل، نغلق أبواب منازلنا ونرصد نشرات الأخبار، ثم نقوم بتعداد الشهداء، توالت الأيام وأنا مقيمة مع عائلة زوجي، أعاني بصمت، وأحاول ببؤس الاندماج معهم، كنت ألزم غرفتي بعد قيامي بواجباتي المنزلية، وأحاول جاهدةً الابتعاد عن الصدام مع والد زوجي، وتلك الروح الصغيرة التي باتت تنمو بداخلي، كانت كتعويضٍ من الله على الذي لاقيته في زواجي، شعرت بآلام المخاض في أحد أيام الجمعة، كانت الطرقات متأزمة بسبب وضع البلد السيء، في مثل هذا اليوم لا أنكر أن فكرة الولادة كانت ترعبني، ولكن كنت أهدئ من روعي كلما شاهدت أمًا تمسك بيد أطفالها، كنت أقول في نفسي أنها ما دامت هي أنجبت وذاقت الألم، وكتب الله لها الحياة، ثم أنجبت مرةً أخرى، فبالتأكيد الأمر ليس مخيفًا لهذه الدرجة.

ذهبت مع نسيم إلى طبيبتي، فقالت لي أنني على وشك الولادة، لم يكن الألم سيئًا في بداية الأمر، لقد كان الوجع محتملًا، قلت في نفسي ربما النساء تبالغ في صراخها من الألم أثناء الولادة!

دخلت الممرضة غرفتي، وعلقت لي المحاليل، ثم حقنت كيس المحاليل بمادةٍ ما لم أعرفها، ما أعرفه أن بعد دقيقتين هناك قنبلةً بدأت في الانفجار بداخلي، شعرت بأن عظام عامودي الفقري تتكسر، ثم ينتقل الانفجار إلى حوضي، فتنفصل العظام، ثم تعود للانكماش مرةً أخرى، كان الألم حرفيًا لا

يطاق، حاولت عدم الصراخ، وناجيت الله، كان نسيم بجانبي ممسكًا ذراعي.

- ريما، لا تخافي يا عزيزتي، أنا معك، والله معك.

- لا إله إلا الله، نسيم، الألم لا يحتمل، إني أموت.

- كلما تألمتِ، عضي يدي.

- بالطبع لن أفعل، اقرأ لي القرآن أرجوك.

حتى دخلت إلى غرفة الولادة، كانت طبيبتي بالداخل مع بعض الممرضات.

- دكتورة، أنا متعبة، أريد أن أنام.

- تنامي، أتمزحين؟

- خمس دقائق فقط، أرجوك أنا متعبة.

- ابقي معي يا ريما، حينما تشعرين بالألم، حاولي الضغط إلى الأسفل ولا تصرخي، فالصراخ سيبدد طاقتك على إخراج الجنين، هيا يا ريما.. هيا، ستقتلين الطفل، سيختنق إن لم تساعديني، هيا يا ريما... حاولي أرجوكِ.

- أنا أحاول، أقسم لكِ.

ولكن لا فائدة، طلبت طبيبتي من الممرضة تجهيز غرفة العمليات، يبدو أن ولادتي كانت متعسرة، وربما سيقومون بإجراء عملية قيصرية؛ لإخراج الجنين، فجأة صرخت من الألم، صرخت صرخةً واحدة، سمعها نسيم وهو في الخارج.

قالت لي والدته أنه انهار من البكاء لحظة صراخي، وكاد يغشى عليه.

ما أذكره بعدها تدفق الدماء، ثم رأيت طفلي بيد الطبيبة، وبعدها لم أعد أشعر بأي شيء، وكأنه أغمي علي، حينما

استيقظت كان نسيم مستلقيًا إلى جانبي، ممسكًا يدي، ظننت بأنه سيحضن الطفل بدلًا مني، ولكن طفلي كان مع والدته، أظن بأن الممرضات في المشفى حسدنني على حبه لي في ذلك اليوم، لقد حسدت نفسي أيضًا، وضع يده تحت رأسي وضممني إلى صدره وكأنه كان خائفًا من فقداني في تلك الليلة، حينما حملت طفلي للمرة الأولى، كان يبدو كالملائكة.

- صغيري! أحقًا كنت في أحشائي؟

لا أظن بأن هناك شعورًا يفوق شعور الأمومة بجماله، كنت أشعر بالغرابة حينما أسمع عن أمهات قمن برمي أطفالهن، كيف لأمٍ أن ترمي أطفالها أو أن تؤذيهم، إلَّا إن كانت مريضة نفسية، أو شيطانة متوحشة.

كيف يمكنها إيزاء قطعةٍ من قلبها؟

ضممت ملاكي الصغير إلى صدري لأرضعه، يا لهذا الشعور، وكأن روحي وروحه توحدّتا، عاطفة الدنيا كلها تجدها عند أمٍ ترضع طفلها لأول مرة، أحقًا أنا أمك؟ هل هذا هو الحب، الحب الذي لا ينفع معه التخلي؟

كانت شبكات الهاتف عند عائلتي معطلةً بسبب وضع البلد المتأزم، ولا سبيل للاتصال بهم، لذا لم ترافقني أمي أثناء ولادتي، أردت إمضاء فترة نقاهتي عندها، استطاع نسيم الاتصال بهم بطريقةٍ ما، وجاءت أمي لأخذي،

حالما وصلت غيرت لطفلي ثيابه، وعلمتني كيف أهتم به، كان يستيقظ في الليل، وينام طوال النهار، قالت لي أمي أن كل الأطفال حديثي الولادة يفعلون ذلك.

الطريق إلى بيت عائلتي خطرٌ نوعًا ما، ورغم ذلك، كان نسيم يخاطر بنفسه ويأتي للاطمئنان علينا، من المفروض على الطفل حديث الولادة أن يأخذ جملة من التطعيمات، أولها في خلال الأسابيع الأولى، طلبت والدتي من نسيم مرافقتها لأخذه للتطعيم، الأمر بسيطٌ سيستغرق ساعتين على الأكثر، هذا ما قالته أمي، مضت الساعتان، لم يعودا!

مضت أربع ساعاتٍ، خمسة، ستة، وقلبي يكاد يتوقف من القلق والخوف والتوتر، ما لذي حدث لهم، لماذا تأخروا؟

كنت أمشي في البيت ذهابًا وإيابًا، هناك حريقًا اندلع في قلبي، شبكات الاتصال معطلة، ليس هناك أية طريقةٍ للاتصال بهم، يا إلهي أعدهم سالمين، قرأت القرآن ودعوت، دعوت الله كثيراً حتى غبت عن الوعي.

حينما استفقت، كان قد حل المساء، وهم في الخارج ولم يعودا بعد!

في آخر المساء، عاد نسيم وحده.

- ما الذي حدث؟ أين ابني؟ أين أمي؟

- اهدأي يا ريما، أرجوك.

- أهدأ؟ أخبرني أين الطفل؟

- إنه في المشفى، وضعناه في الحاضنة.

- لِمَ؟ ألم يكن بخير؟ يجب علينا إبقاؤه في الحاضنه حتى يزول الاصفرار عنه، لا تقلقي، أغلب الأطفال يصيبهم ما أصاب الطفل، احضري لي بعض الغيارات للطفل؛ لآخذها معي.

- ومتى ستعيدونه إليّ؟

- يومان فقط يا ريما، لن يمكث هناك كثيرًا، اصبري.

بعد يومين أعادوه إليّ، شعرت بأن روحي هي من عادت لي.

إنه الحب، الحب غير المشروط، هو حب الأم لطفلها، كنت أشعر بالغرابة من كوني أصبحت أمًا، بقيت لسنة كاملة أنظر لطفلي، ثم أقول لنفسي، أحقًا أنا أمك؟
اعتاد أخي الكبير ممازحتي بقوله "طفلة ولديها طفل"، لا أدري إن كان ذلك مزاحًا أم واقعًا، حتى حينما تجاوزت العشرين، بقي يمازحني بذلك.
بعد انقضاء فترة نقاهتي، رجعت للإقامة الجبرية في منزل عائلة نسيم،
وجود طفلي أعطى والده مزيدًا من الأسباب للتقليل من شأني، فكان كلما استيقظ في الليل وسمع بكاء الطفل، كان يطرق باب غرفتي ويأخذه مني؛ ليعطيه لزوجته، ومن ثمّ يصرخ قائلًا هؤلاء الحمقى، كيف لهم بأن يربوا طفلًا!
مشاكل نسيم مع أبيه ازدادت، وكنت أنا من تتحمل تبعات غضب نسيم من والده، أما والده، فقد احتاج إلى شماعة ليعلق عليها مسؤولية فشل ابنه، وكنت أنا وأمه تلك الشماعة، تزاحمت الضغوط التي واجهتني في تلك الفترة، فعائلتي اضطرت للنزوح من منطقة سكنهم حفاظًا على أرواحهم،
وبدلًا من أن يقوم نسيم بمواساتي والوقوف إلى جانبي، قام بضربي للمرة الثانية!
ما الذنب الذي ارتكبته حتى قام بضربي؟ في الحقيقة جلّ ما فعلته هو أنني أيقظته لسؤاله عن شيءٍ ما، فلم أشعر بنفسي إلّا وقد انهال عليّ بالضرب، حتى تحولت شفتاي إلى اللون الأزرق،

والكدمات غطت جسدي، وبعد أن انتهى من ضربي، صرخ بوجهي قائلًا: هيا اطلبي الطلاق ولن تري طفلك مرةً أخرى، حتى لو قمتِ بتقبيل قدمي!
وحين رأت أمه منظر الكدمات على جسدي، فسر فعلته لها بأنه كان يحلم حلمًا مزعجًا، وأن إيقاظي له قد أرعبه!

أوضاع البلد ازدادت تأزمًا، اضطر الكثيرون لترك منازلهم، ومن بينهم عائلتي كلها، وبعد أن هُجروا من بيوتهم، بدأنا نفقد بعضهم الواحد تلو الآخر، كان فقيدنا الأول أحد أقاربي الذي انضم لصفوف المعارضة، وكانت هناك قصةً خلف ذلك، أذكر أنه كان يمتلك متجرًا صغيرًا وكانت تمر أسراب المظاهرات من أمام متجره، وكانت الشرطة تلقي القنابل المسيلة للدموع في محاولةٍ منها لتفريق التجمعات، بعض المتظاهرين كانوا يدخلون إلى متجره لشراء بعض المياه الغازية، وأحيانًا كان يهبهم إياها للتخلص من آثار الاختناق الذي تخلفه القنبلة؛ لذا سجنوه بحجة تمويل المظاهرات، ترى كم قد تكلفك زجاجة من المياه الغازية في وطنك؟
في وطني كلفته حياته، في المرة الأولى، عذبوه كثيرًا ثم أطلقوا سراحه، ولكن هيهات أن يدعوه وشأنه، فكلما اشتدت الأزمة، أعادوه للسجن مرةً أخرى؛ لأنه من أصحاب السوابق على حد قولهم.
آخر مرة سجنوه فيها، كان قد فاض به الكيل؛ لذا خرج حاقدًا ناقمًا عليهم، فحمل السلاح ولم يدم هذا طويلًا حتى لاقى حتفه.

كانت زوجته تبيت في منزل أسرتي، قالت لي أمي بأن الليلة التي لاقى زوجها حتفه فيها، استيقظت في منتصف الليل تصرخ وتقول بأن روحه زارتها مودعةً، رغم أن خبر موته لم يكن قد وصلها بعد.

لم نكن قد اعتدنا الموت بعد؛ لذا خبر موته كان مدويًا، في ذلك اليوم لم أستطع النوم، وبقيت أفكر به لمدة شهر، رغم أن علاقتي به كانت رسمية جدًا، فكرت بمصير زوجته وعائلته وأطفاله، وأمه الثكلى، وضعت نفسي مكان كل فردٍ فيهم، ما يؤلم أكثر هو استساغنا الموت لاحقًا، فما كان موته إلَّا بداية سلسلة ضحايا الحرب.

أيمكنكم تخيل ذلك (اعتياد الموت)، أي كارثةٍ هذه التي حلت علينا، لقد اعتدنا الموت واستسغناه وكأنه أصبح من الحتميات، واعتدنا التهجير وكأنه من المسلمات.

أول مرة استقبلت خبر وفاة أحد أفراد أسرتي، كان الأمر صعبًا جدًا، جاءني خبر وفاة زوج أختي الصغرى ندى، وأن أختي قد أصيبت بكتفها، علمت بعدها أنها عاشت أحداث رعبٍ حقيقية، حيث قد قتل زوجها أمام عينها، كان الشتاء مقبلًا، والشتاء في وطني لا يرحم، تمامًا كما الحرب،

حينما اضطروا لترك منزلهم لم يحملوا معهم سوى بعض الحاجيات الضرورية، ومع دخول الشتاء أصبحت حالتهم المادية سيئة، وشراء الثياب الشتوية في هذه الحرب يحتاج ثروة، اقترح زوج أختي ندى النزول إلى منزلهم؛ لإحضار الثياب وبعض الحاجيات التي يحتاجونها، خرجوا بسيارتهم وكانت أخته معهم، وتلك المنطقة كانت خطرة للغاية، منطقة اشتباكٍ

كما كان يطلق عليها، تمركز بعض القناصين في أعالي الأبنية، يتصيدون من يحاول دخول المدينة، وحالما رأوا السيارة مقبلة، بدأوا بإطلاق النيران عليها، قال لها اتلِ القرآن يا ندى، ورددي "**وجعلنا من بين أيديهم سدًا ومن خلفهم سدًا فأغشيناهم فهم لا يعلمون**"، فجعل الله لها سدًا ولم يجعل له، حيث أصيب بطلقةٍ نارية اخترقت زجاج السيارة وأصابته في رأسه، نظرت ندى إليه، والأعيرة النارية تطلق على السيارة من كل صوب، الوقت تجمد للحظة، ثم صرخت، لقد تذكرت أطفالها، فنظرت إلى أخت زوجها التي أصابها الجمود أيضًا وفتحت أبواب السيارة وقامت بسحبها خارجًا، أمسكت بذراعها وركضت باتجاه مدخل أحد الأبنية، كانت جدران الأبنية مفتوحة على بعضها حتى تسهل على المسلحين الحركة فيها، تنقلت بين البيوت من خلال تلك الفتحات حتى وجدت هاتفًا، رفعت سماعة الهاتف، يا إلهي، إنه يعمل.

كل ما كانت تفكر به هو أطفالها، أول رقمٍ خطر ببالها كان رقم أختي الكبيرة أسماء.

- أسماء؟
- من معي؟
- أنا ندى يا أسماء، اسمعيني جيدًا، زوجي استشهد.
- ندى!! ما الذي تقولينه، ومن أين تتكلمين؟
- اسمعي يا أسماء، ربما سأموت أنا أيضًا، اعتنِ بأطفالي أرجوكِ.

حتى قطعت أخت زوجها الخط فجأة.

- لم فعلتِ هذا؟

- هناك صوتًا، أحدهم قادمٌ، فلنختبئ يا ندى.
- أين سنختبئ؟ لو خرجنا سيجدوننا.
- هناك دولاب ملابس، لنختبئ به.
استدارت ندى لتجد الملابس البيضاء في الدولاب تحولت إلى اللون الأحمر.
- يا إلهي يا ندى، أنت مصابة.
- هسس، اصمتي، إنهم في الخارج.
- أين أنتم؟ لقد رأيناكم وأنتم تدخلون، لا تخافوا، لن تقوم بإيزائكم، علينا إخراجكم من هنا بسرعة.
قاموا بالخروج من الدولاب، فلا خيار آخر أمامهم.
- أختاه يبدو أنك بحاجةٍ إلى مشفى، أنتِ تنزفين.
- أولادي!
- ما بهم؟
- لقد أصبحوا أيتام.
- تحلي بالصبر، قدر الله وما شاء فعل.
نقلت ندى إلى المشفى وهي بحالة صدمة، بقد أن مزقت الرصاصة لحم ذراعها، لا بد بأن تلك الإصابة ستترك ندبة عميقة، بعد خروجها من المشفى أقامت عند أختي أسماء ليومين؛ لصعوبة نقلها إلى منزل أسرتي، قالت لي أسماء أن حال ندى صعبٌ للغاية، وبأنها تحاول جاهدةً التخفيف عنها، مسكينة أسماء، لم تكن تعلم ما ينتظرها.
في طفولتي كنا ننتظر أول أيام العيد بلهفة، العيد بالنسبة لنا هو الذهاب إلى الملاهي، وتناول الحلويات، ونقوم بالكثير من الزيارات لجميع الأقارب، عيدنا اليوم قد اختلف، في أول أيام

العيد، ابن أسماء الكبير الذي يبلغ من العمر عشر سنوات، خرج للعب كما جرت العادة في مثل هذا اليوم، وقام بشراء لعبة على هيئة مسدس تطلق بعض الخرز الملون، كانت مدينتهم هادئة، ولم تكن منطقة مظاهرات أو اشتباكات، فجأة سُمع دوي انفجار، يبدو أنها قذيفة من نوعٍ ما، اتصلت أمي قالت لي بصوتٍ يرتجف.

- ربما، افتحي شبكة الانترنت، وابحثي عن قتلى اليوم، يقولون بأن ابن أختك أسماء قد أصيب أو استشهد، لم نستطع التحقق من الأمر، تحققي لنا بسرعة.

وليتني ما فعلت، كانت صورته تتصدر صفحات البحث، وكان وجهه متهشمًا، فقد إحدى عينيه، وكانت شفتاه مهشمتين، وأسنانه ظاهرة، وبدون أطرافه السفلية.

عشر سنوات! لقد كان يبلغ من العمر عشر سنوات فقط، مع مسدسٍ من البلاستيك، ربما ظنوه مسدسًا حقيقيًا فقتلوه؟

في الماضي كان العيد رمزًا للفرح، فما باله استحال إلى عزاءٍ.

سقطت على ركبتاي وبكيت، وضعت يدي على فمي لأكتم صراخي، كم أنا جاحدة، لقد تذكرت بأني لم أعانقه قبل موته، كيف رحل هكذا دون أن أعانقه، لقد رحل، ولن أراه مجددًا، كان طفلًا شقيًا، ولطالما استثار غضبي، قد اعتدت توبيخه دائمًا، ليتني ما فعلت، ليته يعود، وسأعده بأني لن أوبخه مجددًا، سيلعب الآن كما يحلو له، ولكن في السماء عند ربٍ رحيم.

أصبحنا لاحقًا نستقبل الموت ببرود، سيأتيك الموت بغض النظر عن عمرك أو ديانتك أو طائفتك أو موقفك السياسي،

في أرض الموت هذه سيحصدك على أية حال، كل ما عليك هو انتظار دورك!

كنت أستيقظ كل يومٍ على شجار نسيم مع والده، وأتصادم أنا مع كليهما؛ لعدم مقدرتي على إرضاء الطرفين، حتى انتقلنا إلى منزلنا الخاص، ظننت بأن وضعي الآن سيصبح أفضل، وبالطبع كنت مخطئةً، أصابتني حالةٌ نفسيةٌ سيئة؛ لمكوثي ستة أشهر وحيدة بالمنزل، وكان من غير المسموح خروجي وحدي، في كثيرٍ من الأحيان كان يضطر نسيم لقضاء الليل في عمله؛ لأن الطرقات كانت تغلق فجأة، مع انقطاعٍ متواصل ومتكرر للكهرباء، امتنعت عن تناول الطعام، حتى عجزت عن الوقوف، حاول نسيم إجباري على الأكل، عن طريق وضع الطعام في فمي بالإكراه، فتقيأته كله.

لم أفهم لِمَ عليّ احتمال كل ذلك، لماذا يستمر بمعاقبتي دون أن أخطئ، كان يحاسبني على أية كلمةٍ أو نظرةٍ أو نبرة صوتٍ مرتفعة قليلاً، أنا لست ملاكًا يا نسيم، أنا بشرٌ، والبشر يخطئون ويغضبون ويبكون ويفرحون، لماذا تعاملني بهذه الطريقة؟

حتى بدأت أتصرف تصرفاتٍ مجنونة؛ لأشعره بوجعي، لم أستطع الصراخ بوجهه، وكلما حاسبته كان يزداد الأمر سوءًا بشكلٍ غير محتمل، فكنت أؤذي نفسي لأؤذيه بي، لعل ضميره قد يؤنبه أو يغيّر من معاملته لي.

لم يستطع تحمل مسؤوليتي ومسؤولية طفلي، نسيم شخصية اتكالية وأنانية ومدللة، وربما معقدة، هذا ما ستجنينه عند الزواج برجلٍ اعتادت أمه على تدليله، واعتاد والده على زرع العقد النفسية برأسه، كان والده يحاسبه لأنه لم يكن نسخةً

منه، لا أنكر بأن والد نسيم شخصية عصامية، استطاع تكوين ثروته دون مساعدةٍ من أحد، درسّ في إحدى كليات القمة - كما يُطلق عليها- وعمل بالتجارة، وحصل على منصبٍ مرموق، وامتلك العديد من العقارات، واستطاع زيارة الكثير من البلدان قبل أن يتم عامه الأربعين، فكان يعيبه قلة حيلة ابنه، فينعته بالفاشل حتى فشل!

حاولت النجاح بدوري عن طريق العودة إلى الدراسة، اشتريت كتب الثانوية، وحاولت أن أدرسها وحدي دون الاستعانة بأحد، في البداية كان موافقاً بشرط ألّا أخرج من المنزل، وحين وجد مني الجديّة في الدراسة، منعني من التقدم للامتحان، اعتقد أن نجاحي يؤذيه، حتى أني كنت أشعر بحقده عليّ إذا شعر أني محقة في أمرٍ ما، كل محاولاتي لاحتوائه باتت بالفشل، بل محاولة احتوائي له جعلته يستسيغ ايذائي واستغلالي بشكلٍ أكبر، أصبحت عودته من العمل إلى البيت صعبةً بسبب الطرقات المغلقة، كنت أقضي النهار والليل وحدي، وكأني مسجونة بسجنٍ انفرادي، ولولا طفلي ربما كنت أجرمت بحق نفسي بسبب حالتي النفسية تلك.

كان من الصعب علينا البقاء في المنزل وحدنا، الطريق قطع بشكلٍ نهائي، واصبح من المستحيل على نسيم العودة إلى المنزل، أو الذهاب إلى العمل يوميًا؛ لذا عدنا للإقامة في منزل أسرته مجددًا، عانيت بصمتٍ مجددًا، وازدادت الفجوة بيننا، حاولت الانفصال عنه مراتٍ عدة، وكنت أقضي شهورًا في منزل أسرتي، في إحدى المرات تدخل والده في حل المشكلة، فقام بالاتصال بي لإقناعي بالعودة، أذكر يومها بأني صرخت بوجهه

قائلةً "أنا لست قطعة أثاث تنقلونا كما تشاءون"، مما جعل المشكلة تتفاقم، لا أذكر كيف عدت مجددًا، أذكر بأن نسيم حاول كثيرًا مع عائلتي ليعيدني، وفور عودتي إلى المنزل استقبلني والده بمحاضرةٍ طويلة في الأدب والأخلاق، لأني قمت بالصراخ بوجهه، أما نسيم، فبدأ يعاملني بشكلٍ أفضل، ربما لذلك كنت أطلب الطلاق منه في كل مشكلة، وكان هذا يغيظه، تؤذيه فكرة فقداني، وحالما يضمن وجودي، يصبح أسوأ من ذي قبل، لا أعلم ما سبب الفصام المفاجئ الذي كان يصيبه، صبرت كثيرًا عليه، وإن كان الصبر ليس إحدى طباعي، إلّا حينما يتعلق الأمر بكرامتي، كرامتي يا نسيم كانت ولا تزال أهم من حياتي.

ذات يومٍ تشاجرنا، قال بأن جزءًا من عنقي انكشف قليلًا حينما كنت في الصالة أمام أخيه الصغير الذي لم يتجاوز الثالثة عشرة آنذاك، الغيرة جميلة بين الأزواج عندما تكون في حدود المعقول، وقد تحتملها، أو لا باختلاف طريقة التعبير عنها، كانت غيرته حينها مستفزة، فنظرت له بتبرمٍ، أمسكني من عنقي وصفعني أمام والدته، أهان كرامتي لسببٍ تافه، لم أتحمل الأمر، فقدت عقلي يومها، ركضت إلى المطبخ، حملت سكينًا وهددته إمّا أن يطلقني، أو سأجرم بحق نفسي.

- أتضربني يا نسيم؟ ضربتي أمامهم؟ أنا لا أريدك، أنا أكرهك يا نسيم، لِمَ لا تدعني وشأني، طلقني حالًا، قل أنت طالق يا ريما.

- توقفي يا ريما، ارمِ السكين، هيا ارمِها.

- قل أنتِ طالق، هيا قلها.

أسرع تجاهي لكي يسحب مني السكين؛ فضربت يدي لأغيظه، ولم أستوعب ما حدث حتى رأيت لحم يدي قد ظهر خارجًا، فسقطت أرضًا من هول المشهد، لصقوه لي بلاصقٍ طبي بدل من أخذي لأخيّطه!!

وذهب هو بعيدًا عني وهو بحالة انهيار، بعد مُضي ساعةٍ، دخل أباه غرفتي، ظننت بأني سأسمع محاضرة من محاضراته المعتادة، أن ما فعلته كفرٌ وحماقة.

- ريما !! متى ستكفين عن حماقاتك؟ لماذا لا تستوعبين أنك امرأة؟

دعيني أخبرك أمرًا، المرأة عندنا قيمتها من قيمة الخرقة، متى بُليت استبدلناها بغيرها، هل فهمتِ الموضوع الآن؟

- بالطبع لم أفهم الموضوع، فلم يسبق لوالدي بأن عامل أمي بهذه الطريقة التي تتحدث عنها.

- لأن والدك أحمق يا ريما، وأنت حمقاء مثله.

- على العكس تمامًا يا عمي، ستثبت لك الأيام من الأحمق.

استشاط غيظًا، وخرج من الغرفة، ولكنني أعتقد أنه كان محقًا، ما دمت فردًا بهذه العائلة، فلابد أني سأعامل كالخرقة حتى أبلى، لذا عليّ إصلاح الأمر متى سنحت فرصة أمامي.

كنت مضطرة لحمل ابني بيدي المجروحة، مازال صغيرًا وبحاجةٍ للعناية، وكنت كلما حملته توسع الجرح أكثر؛ لذا تأخر شفاؤه، الجرح يبدو ملتهبًا، فقررت الذهاب إلى الصيدلية لأشتري معقمًا، فطلب الصيدلي مني رؤية الجرح، وحينما رآه صعق وصرخ بوجهي.

- ما سبب هذا الجرح؟
- جرحت ذراعي حينما كنت أنضف عليّة المنزل.
- ألا ترين بأن الجرح خطيرٌ وبحاجةٍ ثمانية عشر غرزة على الأقل، ما هذا الإهمال، اذهبي إلى الطبيب حالًا.
- حاضر سأذهب، ولكن اعطني المعقم.
- أنا آسف، لن أعطيكِ شيء، اذهبي للطبيب، فوضع ذراعك خطير.

خرجت من عنده، وبحثت عن صيدليةٍ أخرى، واشتريت معقمًا دون أن أسمح له برؤية الجرح، مازال جرحي كما هو لم يلتئم، رغم أنه قد انقضى ثلاثة أيام منذ أن جُرحت، لا بأس، سيترك ندبةً جميلة، عقمته ووضعت ضمادًا،
حتى ولو نسيت الجحيم الذي عشته معك يا نسيم، سأنظر إلى تلك الندبة،
وحينما يأذن لي الله للنجاة، سأنظر إلى تلك الندبة أيضًا، وسأشكره كثيرًا لأني نجوت.
اشترى لنا والده بعد فترةٍ بيتًا صغيرًا بجانبهم، سأعود للسجن الانفرادي مجددًا، ولكني وجدت رفيقًا هذه المرة ليؤنس وحدتي، وهو الكتاب.
طلبت من نسيم تحميل الكتب الإلكترونية لأنقلها على هاتفي المحمول،
قرأت ما يقارب المائة كتابٍ في أقل من سنة! من بعدها تغيرت،

كنت أعلم أن للقراءة تأثير قوي على الإنسان، ولكن لم أتوقع أن القراءة ستغيرني إلى هذه الدرجة، وجدت نفسي في الكتب، سافرت، أحببت، وبكيت كل هذا على عتبة كتاب.

القراءة تفتح لنا آفاقًا جديدة، وتوسع مداركنا، كان الكتاب صديقي في عزلتي تلك، تحتاج أرواحنا لمن يشبهها، فتتآلف معه وتهدأ، ولكن صداقة البشر تختلف عن صداقة الكتب، فالصداقة مع البشر علاقة شائكة، أو لنقل سيفٌ ذو حادين، فمن يعرفك أكثر من صديقك؟ تلجأ إليه في أسوأ حالاتك، وتخبره كل أسرارك، حتى أسوأها، من غيره قادرٌ على طعنك في ظهرك، فهو يملك مفاتيح دمارك ونقاط ضعفك كلها، علاقة الصداقة كانت تخيفني حتى التقيتها، فأصبحت أخاف ولا أثق، كانت تشبهني في نواحٍ عدة، ومع شخصيتي الغريبة تلك، كان من الصعب إيجاد من آلفه ويألفني، كنّا نقرأ الكتب معًا، ونسمع الموسيقى نفسها، ونملك ذات الميول وذات الشغف، كانت تفهمني دون أن أتكلم، وأفهمها كذلك، ولكن قلوبنا كانت مختلفة، عاملتها بحسن نية، وعاملتني بسوء النية، كانت تحمل خبثًا بقلبها، والمؤلم أني كنت أشعر بذلك، ولكني خفت فقدانها، فلم أبتعد، يقول الله تعالى (الفتنة أشد من القتل)، احذر بمن تثق، كان لصداقتي معها نصيبًا لإضرام جحيمي الخاص أكثر، تركت نسيم مجددًا على أثرها، وبدأت حياتي من جديد في كنف أسرتي، هذه المرة كنت أنا المخطئة، أخطأت حينما استمعت لكلام صديقتي، مما خلق فتنةً بيني وبين عائلة نسيم؛ لذا لا أستطيع إلقاء

الملامة عليه، وبعد شهرٍ من انقطاع التواصل بيني وبينه، اتصل بي.

- ريما!

- ماذا تريد يا نسيم، لقد انتهينا، لِمَ تتصل بي؟

- لا تكوني ظالمة يا ريما، عودي إليَّ.

- لن أعود يا نسيم.

- ريما، أنتِ من أخطأتِ، وأنا من أتصل معتذرًا، ألا يكفيك هذا؟

- أنا أدرك ذلك، أدرك بأني أنا التي أخطأت، ولكني اكتفيت، لم يعد لي صبرًا لاحتمال أكثر مما احتملت، إن كنت سأعود لك، ستقبل بشرطي؟

- ما هو شرطك؟

- دعني أكمل دراستي.

- لست أنا من سيقدم التنازلات الآن يا ريما، يكفيكِ أني اعتذرت.

بعد فترةٍ قامت خالته بزيارة منزلنا، أخبرتني بأن حالته سيئة للغاية، وازداد نحولاً، وبأنه كلما جلس إلى السفرة، كان يشعر بغصةٍ فيمتنع عن الطعام،

بدأتُ بلوم نفسي بعدها، ترى هل أخطأت برفضي العودة؟ تبًا لقلبي، لِمَا عليه أن يكون رقيقًا إلى تلك الدرجة.

قمت بالاتصال به.

- نسيم!

- ماذا تريدين بعد ما فعلتِه؟

- أنا موافقة، سأعود.

- انسي الأمر، وعودي إلى حياتك ودراستك، لست بحاجتك بعد الآن.

كم كنت حمقاء حينما اتصلت، ومن قال أني بحاجتك يا نسيم؟ تفوقت في دراستي وانتظرت موعد تقديم الامتحان النهائي، حتى أخبرتني أمي بقرارٍ مفاجئ.

- ريما!! عليكِ الاتصال بنسيم.

- ولما سأفعل؟

- عزيزتي قررنا السفر، وسنأخذك معنا.

- يا أمي ما هذا القرار المفاجئ؟

- ريما، لقد فقدنا منزلنا، وفقدنا تجارتنا وأموالنا، وضع البلد ازداد سوءًا، وأبوك كبيرٌ في السن، ولكن يا أمي، لن أستطيع أن آخذ ابني معي إن لم يعطِني نسيم تصريحًا بسفره، ولا أظن أنه سيفعل.

- كلميه واتفقي معه؛ لنتم اجراءات الطلاق قبل سفرنا.

- ولكن يا أمي، ماذا سأفعل لو لم يعطِني التصريح.

- قال والدك بأنه لو فعل ذلك، ستعطيه الطفل.

- أعطيه مَنْ؟ هل الأمر بهذه السهولة؟ وكأن قلبي حجرًا، وكأني لا أشعر،

أمي، لو تعيّن عليّ البقاء في الشارع، لن أترك طفلي، افهمي هذا أرجوك،

الحب غير المشروط، الحب العصي عن التخلي، هو حب الأم لطفلها، إنه قطعة من قلبي، كيف أتخلى عنه؟ وهل هو شيءٌ قابل للتخلي أصلًا؟

لقد أصبحت الآن تحت رحمة نسيم ، وبالتالي لن يرحمني اتصلت به ورجوته، تخليت عن كرامتي هذه المرة في سبيل طفلي، ورفض إعطائي التصريح كما توقعت، وقال أني وحدي من سأربي طفلي، وأنه لن يقبل بأن يربيه أحدٌ غيري!!

ما هذا الفصام؟ وهل هذا وقت فصامك يا نسيم؟ كيف سأربيه إن لم تمنحني التصريح بأخذه؟

كنت على كف عفريت، كان بقائي وحدي مستحيلاً إذا سافرت عائلتي، وقد أموت لو أبعدوني عن طفلي، توقفت عن تناول الطعام، حتى عجزت عن الوقوف، نقص وزني كثيرًا، وأصبح شكلي مخيفًا، هالاتٌ سوداء، وعينان غائرتان، ووجهٌ شاحب، جلست أمي عند حافة سريري وهي تبكي.

- يا ريما أرجوكِ كلي، ستموتين يا ابنتي.
- اتركيني يا أمي لا رغبة لي في الطعام.
- ستقتلين نفسك بهذه الحال.
- حقًا، ليت قتل نفسي بهذه السهولة، ولكني أخاف غضب اللّه.
- كلي من أجل طفلك.
- طفلي الذي ستحرمونني منه؟

عاودت الاتصال بنسيم، لم يبق لي خيارًا آخر.

-نسيم!

- فلنذهب للمحكمة لإتمام الطلاق، وخذ الطفل مني، أو أعطني تصريحًا بسفره.
- حسنًا يا ريما، لنلتقي صباحًا عند باب المحكمة.
- ماذا عن الطفل؟ هل ستمنحني التصريح؟

- بالطبع لا.
- ما الذي تريده؟
- أريدك.
- ألن نذهب إلى المحكمة غدًا؟
- ما الذي تريدينه يا ريما، تريدين الذهاب؟
- أريد العودة يا نسيم.
- سآتي غدًا؛ لأعيدك للمنزل.

كان يعلم جيدًا أنه لا خيار لدي سوى العودة، فأنا لن أستطيع العيش دون ابني.
يومنا الأول بعد عودتي للمنزل، لم يكن سيئًا، كان نسيم في غاية السعادة، أشبه بطفلٍ فقد أمه لفترةٍ ثم عاد إليها، بقينا بضعة أيام بمنزل عائلته، ولم يكن الوضع مريحًا بالنسبة لي، بعد عودتنا إلى المنزل، عاد نسيم الذي أعرفه، إن لم أرتكب خطأ ليحاسبني، سيختلق لي الأخطاء!
فكنت أجد نفسي مخطئةً دون أن أخطأ، وهذا ما كان يصيبني بالجنون،
أردت أن يشعرني بالأمان ولو لمرةٍ واحدة، وكل ما وجدته هو حالة من الرعب، كنت أخاف ارتكاب أي خطأٍ غير مقصودٍ من شأنه إفساد أيامي المقبلة، حتى أني في إحدى المرات لم أشعر بنفسي إلّا وأنا أضع يداي على عنقه محاولةً خنقه بعد مشادةٍ كلامية، حتى استوعبت فعلتي فتركته وبكيت، بكيت حتى انقطعت أنفاسي وانهرت.
- أتحاولين خنقي يا ريما؟

- أنت وحشٌ يا نسيم، وحش، وحش؟ لقد تعبت منك، افعل ما أنت فاعله، أتريد ضربي؟ هيا اضرب، ما الذي تنتظره؟ اضرب.

لم يضربني في ذلك اليوم، بل عانقني وأعتذر، لقد بكى كثيرًا واعتذر، ثم أقسم بعدم إيذائي مجددًا، احتفلنا في رأس السنة، وأحضر لي بعض الهدايا، هو يعلم جيدًا أصناف الطعام التي أفضلها، اشترى لي كل ما أحب، كان لطيفًا، شعرت في ذلك اليوم أن نسيم الذي التقيته أول مرةٍ قد عاد مجددًا، لابد أنني أحلم، هل ستتحسن حياتي يا ترى؟ هل سيبقى نسيم بهذا اللطف؟ ربما قد شعر بخطئه معي وسوف يعوضني، ربما!

في صباح اليوم التالي خرج إلى عمله؛ ليأتيني اتصالٌ منه بعد نصف ساعةٍ.

- ريما عزيزتي، احزمي لي بعض الأمتعة، سيأتي والدي لأخذهم.

- ما الأمر يا نسيم؟ لما سأحزم أمتعتك؟

- أرجوكِ يا ريما، افعلي ما أقوله، ولا تطرحي الأسئلة.

اتصل والده بعد قليل؛ ليخبرني أن أجهز نفسي لأودعه، فقد سحب من على إحدى الحواجز الأمنية؛ لأن هناك مذكرةً في حقه للانضمام إلى صفوف الجيش.

حزمت له أمتعته، وفي قلبي غصة، وعيناي تترقرقان بالدموع، لقد احتجزوه بغرفةٍ مليئةٍ بعناصر الجيش، وبعض المدنيين، وقف وعانقني، قبلني من جبيني أمام الجميع، وقال لي اعتنِ بنفسك وبالصغير.

رجعت إلى منزلي وحزمت أمتعتي، وعدت للإقامة في منزل أسرته، أما نسيم، فقد قطعت أخباره بعد أن احتجزه الحاجز.
صليت كثيرًا لكي لا يؤذوه، طوال خمسة عشر يومًا لم أخلع بها ثياب صلاتي، كنت أقرأ القرآن طوال الوقت، وأدعو اللّه كي يحميه، كنت أشعر بالفزع كلما فكرت بمصيره، ولا سبيل للاطمئنان عليه، رجوت والده، كان دومًا يتباهى بنفوذه.
- عمي، أين ذهب نفوذك؟ ألن تفعل شيئًا للاطمئنان على ابنك؟
- أتظنين بأني مكتوف اليدين يا ريما؟ لقد كلمت الكثير من المسؤولين، وكل ما قالوه، أن ما حدث مع نسيم إجراءٌ روتيني.
- ألن يعود للمنزل؟
- لا يا ريما، لن يعود.
طلبوا مني مبلغًا كبيرًا من المال؛ لكي يعود، ولكنك ثريٌ يا عمي، ذلك المبلغ لن يشكل أي فرقٍ في ثروتك، وماذا إن كنت ثريًا؛ فليخدم وطنه، شأنه شأن البقيّة، فليكن رجلًا، ضحكت يومها لأنه لم يكن الوطن هو ما يهم، بل المال، يا له من جشع، يستطيع كسب ضعف المبلغ بأسبوع، علمنا بعدها أنهم احتجزوه في إحدى الأفرع الأمنية، لم أفهم لماذا قد يسجنوه، قالوا بأن ذلك إجراءٌ روتينيٌ لا أكثر، وسيمكث هناك خمسة عشر يومًا، بقيت أتضرع لله كي لا يؤذوه.
فمن يعلم ما قد يلاقيه في السجن؟ بعد خمسة عشر يومًا اتصل، بعد أن أرسلوه إلى ثكنة تدريبٍ تابعةً للجيش، حزمت له بعض الأمتعة، وخرجنا إليه، عندما رأيته كان شكله مخيفًا، كان يشبه مريض سرطانٍ بعد رحلةٍ من الجرعات الكيماوية، شديد

البياض، نحيلً جدًا، شاحبًا بشفاهٍ متشققة، الشيء الوحيد الملون فيه كان شعره وذقنه، وقد قاموا بحلاقتهم له!

حينما رآني لمعت عيناه، وعانقني وبكى بشكلٍ هيستيري لبضعة دقائق، ثم تمالك نفسه.

- ما الأمر يا نسيم؟ هل عذبوك؟

هز رأسه نافيًا

- نسيم! تبدو مرعوبًا، ما الذي حدث معك هناك؟

- كانوا يموتون أمامي يا ريما.

- من هم؟

- لا تسأليني أرجوكِ، لا يمكنني قول شيءٍ لكِ، هل جلبتم بعض الطعام معكم؟

- بالطبع، جلبنا الكثير ألم تكن تأكل يا نسيم؟ لقد زاد نحولك نحولًا.

- كانوا يطعموننا طعامًا سيئًا خالٍ من الملح.

- وماذا عن الماء، ألم تكن تشرب، شفتاك متشققتان للغاية، المصدر الوحيد للماء هناك كان المرحاض، فبالطبع لم أكن أشرب.

- ألن تخبرني بالذي رأيته هناك؟

- ريما أرجوكِ، أريد أن أنسى ما رأيت، لا تسأليني عن هذا مطلقًا.

- ما الذي سيحدث لك الآن؟

بعد أن أنهي تدريبي، سيقومون بفرزي إلى إحدى النقاط الحربية المتوزعة على أطراف البلد.

فهمت أنهم لم يؤذوه جسدياً، لكن ما رآه آذاه نفسيًا، خطة ذكية للغاية، كنت أتساءل عن السبب الذي يجعلهم يسجنونهم قبل التحاقهم بصفوف الجيش،
حتى يعلموا ما قد يلاقوه في حال ارتكبوا أي شيءٍ مخالف لأنظمة الدولة.
كانت أيامي في منزل أسرته متشابهة، غارقةً بالروتين الإجباري، لأنه لم يكن مسموحًا لي بفعل أي شيء، كل ما يمكنني فعله هو قول حاضر.
الحمد الله أن أمه كانت طيبة القلب، كانت تخفف عني ما أعانيه في كثيرٍ من الأحيان.
- يا أمي!
-ماذا يا ريما؟
- هناك أكاديمية قريبة لتعليم اللغة الإنكليزية، وأيضًا الموسيقى، ترى هل سيسمح لي عمي بالتسجيل فيها.
- أرجوك يا ريما، اتركي هذه الفكرة، وابعدي عني وعنك المشاكل، واصبري يا ابنتي.

فاستسلمت والتزمت الصمت، على الرغم من أن عائلتي بعيدة عني، لكن كنت أشعر أنهم بجانبي بنواحٍ عدة.
العائلة هي من أكبر النعم التي قد ينعمها الله علينا، إنها حبل النجاة التي تشبثت به كلما قذفتني الحياة بوديانها، أعلم جيداً بأن نسيم أحبني، ربما أكثر من ابنه، وذلك لأنني لم أستشعر عاطفة الأبوة لديه، ولكن حبه غريبٌ وغير مفهوم،

الحب هو أن يبذل المرء قصارى جهده؛ لإسعاد من يحب، أليس هذا ما يسمونه حبًا؟ وكان هو يبذل قصارى جهده في البحث وراء زلاتي، يحاول جاهداً إثبات أخطائي، كان يقول أن النساء لا تأتي باللين، وبأنه يستعمل تلك الاستراتيجية؛ لكي يخضعني ويحافظ على وجودي معه، كلامٌ أحمقٌ بالطبع...

انقضت سنة وأنا أقيم في منزل أسرته، من الصعب أن يكون أقصى أحلامك هو الاستقرار، وكل ما أردته من نسيمٍ هو الشعور بالأمان، ومع وضعه الجديد زادت مشاكلنا تعقيدًا للحد الذي لا يطاق، كان يعاملني وكأنني مسؤولة عن كل الأمور السيئة التي تحدث معه، استطعت إقناعهم بالسماح لي بالعمل، على أمل أن أدير مشروعي الخاص لاحقًا، كنت أستيقظ في الصباح الباكر لأقوم بمهامي المنزلية، وكان يُحظر علي أن أتأخر لما بعد الساعة الخامسة مساءً، وإلّا سألاقي ما ألاقيه من المشاكل. لقد خفف العمل عني وطأة ما كنت ألاقيه في المنزل، تعرفت على بعض الأصدقاء، وخرجت من حالة التوحد التي كنت أشعر بها

قبل أن أنخرط أكثر في العالم الخارجي، كنت أظن أن النساء في محيطي هم الأكثر اضطهادًا، ولكنني فهمت لاحقًا أن مجرد كونك فتاة شرقية، بغض النظر عن محيطك، سيقومون باضطهادك بطريقةٍ أو بأخرى، ومن خلال عملي تعرفت بإحدى الفتيات التي سرعان ما أصبحنا من أفضل الأصدقاء، كانت تدعى ولاء، وكنا من طائفتين مختلفتين، عند لقائنا أول مرةٍ كانت تبدو كئيبةً للغاية، وكأن قلبها يعتصر حزنًا، فهمت سبب حزنها لاحقًا، أخبرتني أن أطفالها

أخذوا منها، وبأنها فقدت زوجها منذ خمس سنواتٍ، ولا تعرف إن كان حيًا أم لا.

بقيت في منزلها تربي أطفالها الثلاث، وبعد مشاوراتٍ مع عائلة زوجها، خصصوا لها مصروف جيبٍ لسد احتياجات أطفالها الأساسية، وقالت لي بأنهم سببوا لها الكثير من المشاكل، حتى أجبروها على ترك أطفالها لهم، وسلبوها منزلها كذلك.

- ولاء، هل تسمحين لي ببعض الأسئلة؟

- بالطبع يا ريما.

- أعذريني يا ولاء، ولكن في الحقيقة كنت أظنكم أكثر تحررًا منا كونكم لا ترتدون الحجاب! أي لا يستطيعون تقييد حرياتكم، وتعليقها على شماعة الدين كما يفعلون معنا.

- لا يا ريما، أنت مخطئة بالطبع، أتعلمين بأني أخاف وضع أحمر الشفاه؛ كي لا أتهم بالزنا؟

- ألهذه الدرجة؟

- بل وأكثر من ذلك، زوجي الذي فقدته، لقد أجبرت على الزواج منه حينما بلغت الثامنة عشرة من عمري.

- لماذا أجبروكِ عليه يا ولاء؟

- لأني وقعت في حب أحد الشبان عندما كنت في الثانوية، وعندما علمت عائلتي، أبرحوه ضربًا، وأجبروني على الزواج بآخر، كان زوجي أكبر مني بعشر سنوات، حينما تزوجنا أعادني لعائلتي بعد أربعة أيامٍ؛ لأني كنت أصرخ كلما اقترب مني.

-وبعدها؟

- بعدها تقبلت الموضوع؛ لأنه أصبح يعاملني بشكلٍ جيد؛ فألفته.

- وكيف أخذوا أطفالك.

- قطعوا عني المصروف، ومنعوني عن العمل، كيف سأسد احتياجاتهم؟

لذا تركتهم لهم، وعدت إلى بيت أسرتي، لماذا لم تأخذيهم معكِ؟

- من الصعب على عائلتي إعالتنا نحن الأربعة؛ لذا لم يكن عندي خيارٌ آخر.

- ألا تفكرين بالزواج مرةً أخرى يا ولاء؟

- أعذريني، ولكن أظن أن زوجك قد مات، لقد انقضت خمس سنواتٍ دون معرفتك أي خبر عنه، لا يمكنك فناء عمرك في انتظار المجهول.

- آه يا ريما، هناك شخصًا ما، ولكن...

- ولكن ماذا؟

- عائلته رفضتني بسبب زواجي السابق، الشاب الذي أعرفه أعزب ولم يسبق له الزواج، وأهلي رفضوه لأنه مصاب حربٍ، حين أحبني لم يكن مصابًا يا ريما، لقد أصيب بعد أن عرفته بفترة، أصيب بقدمه، وأثناء ذلك استشهد أخاه على ذراعه، كانت حالته سيئة في وقتها، وبقيت معه حتى تحسنت حالته.

- أنتِ فتاةٌ رائعة يا ولاء، ولا تقلقي، سيجمعكم اللّه رغم أنف المجتمع.

- أتمنى ذلك حقًا يا ريما.

كانت ولاء بالنسبة لي أكثر من صديقة، كانت عوضًا من اللّه.

في العمل أدركت بعض الحقائق الغريبة حول طباع الناس، كنت أظن سابقًا أن على الإنسان أن يكون سيئًا حتى يكرهه الناس، وفي العمل اكتشفت أنه من الممكن أن يكرهك بعض البشر لمحبة الناس لك، وكأنك أنت من تقرر مكانتك في قلوبهم، قد يكرهك البعض أيضًا لمحاولتك النجاح في أمرٍ ما، ولم أكن أعلم أن هذه النماذج الغريبة الأطوار متواجدة في حياتنا وبكثرة، نجاحك يؤذيهم، ومحبة الناس لك تؤذيهم أيضًا، مصابون بغيرةٍ مرضيّة، شفاؤها بات مستعصيًا؛ لذا سيبذلون جهدهم لإفساد نجاحك، ولو بذلوا ذات المجهود في محاولتهم النجاح، لربما سبقوك!

بالنسبة لنسيم، طلب مني طلبًا غريبًا فجأة، أراد مني السفر لزيارة عائلتي ريثما تهدأ الحرب قليلًا، أو تهدأ مشاكل عائلته، كنت أعلم أن مسؤوليتي أصبحت عبئًا عليه، ويريد الهروب منها بإرسالي لأسرتي، ولكني رفضت السفر، كنت أعلم أنها حماقة مني أن أرفض تلك الفرصة التي قدمت لي على طبقٍ من فضة، كان بإمكاني التخلص من الجحيم الذي كنت أعيش به، ولكني رفضت، إن كنت سأتركه، فلن أتركه بخباثة، فهي ليست من شيمي؛ لأني أعلم جيدًا أن ضميري لن يرحمني، وسأشعر ببعض الندم، قلت له بوضوح، إن سافرتُ فانسَ أمر عودتي مجددًا، فتخلى عن الفكرة، ولكنه منحني الإذن لكي استخرج جواز سفرٍ لطفلي، في حال تغيرت الظروف، وعاد إلى ما

كان عليه في البحث وراء المشاكل مجددًا، خرج غاضبًا من المنزل، أتمنى بألّا تعود يا نسيم.

- ما الذي قلتِه يا ريما؟
- لا شيء!
- بالتأكيد قلتِ شيئًا.
- أجل، قلت أنني أتمنى ألّا تعود مجددًا.
- أتدعين عليّ بالموت يا ريما؟
- أمسك مزهريةً من البلور كنت أضعها بجانب السرير، وقام بكسرها أمامي، أصابت القطع المتناثرة قدماي، جرحت قدماي وزفت كثيراً، يومها فهمت بأن لا فرص جديدة ستسنح في سبيل الجحيم الذي كنت فيه، وطريقنا معًا شارف على الانتهاء، اتصلت بعائلتي وطلبت منهم حجز التذاكر لأسافر، حاول الاعتذار لي حينما عاد في المساء، لم يكن الزجاج وحده من تكسر يا نسيم، بل علاقتي بك.
- نسيم، فلنتكلم.
- ماذا تريدين؟
- لقد قررت.
- قررتِ ماذا؟
- قررت السفر، ولكن هناك شرطًا.
- ما هو شرطك؟
- ستلحق بي، لأني بالتأكيد لن أعود.
- أخبرتك بأني سألحق بك إن سافرتي، لقد تعبت يا ريما.

- يجب عليكِ السفر قبلي؛ لأني لن أستطيع الهروب من هنا، حتى أطمئن عليكِ، لقد اتفقت مع أحدهم، وسيستخرج لي بعض الأوراق المزورة.
- حسنًا، سأمهلك ثلاثة أشهرٍ من تاريخ سفري، وإن لم تفعل سيذهب كلاً منّا إلى حال سبيله.
- أنا موافق.

كنت أسخر منه في قرارة نفسي، كنت أعلم بأنه أجبن من أن يتخذ خطوةً كهذه، ذهبت إلى عملي يومها وأخبرت ولاء.
- ولاء، سأنفصل عنه وأخيرًا.
- هل جننتِ يا ريما.
- بل قولي عقلت، ولم أجن.
- وماذا عن طفلك، هل سيعيش بلا أب، فكري جيدًا أرجوكِ.
- ولاء، هل تظنين بأن نسيم أب؟
- ما تعريف الأبوة لديه؟
- ليس لديه أدنى عاطفة من الأبوة، كوني أكيدة بأن قراري هذا من مصلحة طفلي أولًا.
- هل تشاجرتم؟
- تشاجرنا وتصالحنا، وقراري ليس نابعًا عن شجارٍ أو عن غضبي منه على الإطلاق يا ولاء، تأكدي بأني لن أندم.
- يؤلمني فراقك يا ريما.
- عزيزتي ولاء، يؤلمني فراقك أيضًا، لقد كنتِ أختًا لي، أتمنى لكِ السعادة، هذا كل ما أستطيع فعله.

حينما سمح لي نسيم بالسفر، كان يظن بأني سأعود مجددًا، بل كان متطمئنًا لذلك، لقد عاش معي لسنواتٍ طويلة، ولكنه لم يعرفني إلى الآن، لقد حمّلت حناني وعاطفتي كثيرًا يا نسيم، ولم تتوقع أنني قادرةٌ على قلب موازينك في أقل من دقيقة، نصف ساعةٍ فقط كلفني قرار الانفصال عنك دون ندمٍ، واللّه ما ذرفتُ دمعةً حينما فارقتك، بل كنتُ في سعادةٍ ما بعدها سعادة، الآن سأستطيع التنفس، الآن ستبدأ حياتي الحقيقية، الآن سأكون أنا، ولستُ نسخةً عن نفسي لا أعرفها، ولكن اضطررت العيش بها لإرضائك أنت وعائلتك، لم تعرفني يا نسيم؛ لأنك دفنتني في محاولتك ترويضي، وبدلًا من ذلك فقدتني، ووصمت نفسك في قلبي.

كيف استطاعت الطائرة حمل تلك الفتاة الحالمة على متنها، ما هو شعور الخروج من الجحيم، ما شعور الغريق حينما يتم إنقاذه، هكذا كان شعوري،

وأخيرًا وصلت إلى كنف أسرتي، لقائنا كان حارًا، لم أكن قد اتخذت قراري بالانفصال بعد، إنما كنت موقنةً أنني انفصلت عنه لحظة خروجي من البلاد، وكنت في انتظار إخلاله في الشرط، ثلاثة أشهر يا نسيم، ستخلف بالشرط، أنا أعرفك أكثر من معرفتك لنفسك، مسألة وقتٍ لا أكثر، يكفيك ما قد منحتك من فرص، لقد استنفدت فرصك عندي وانتهى الأمر.

لم أرغب في الانفصال عنه لأني غاضبةٌ منه، فسرعان ما سيزول ذلك الغضب، لن أنفصل عنه لأنه أخطأ بحقي، لأني ربما سأسامحه يومًا ما، إنما

أريد الانفصال عنه؛ لأنه لم يكن الرجل الذي أردت إكمال حياتي معه، ولأن السعادة لن تعرف لقلبي طريقًا إذا ما استمرت علاقتي به.

مضى أسبوعان على سفري، وبينما كنت أشرب القهوة مع أخي، وصلتني رسالة مع بعض لقطات الشاشة من صديقة لي، بدأت في الضحك.

- ما الذي يضحكك يا ريما؟
- أضحك على نسيم.
- لماذا؟
- لقد أرسل لإحدى صديقاتي على الماسنجر من خلال حسابٍ جديدٍ لا أعرفه، دون أن يعلم أنها صديقتي.
- ما الذي يريده منها؟

في تلك اللحظة ضحكت بصوتٍ عالٍ؛ يريد أن يتعرف.

- ألستِ غاضبة؟
- على الإطلاق، لما سأغضب؟

في الحقيقة كنت أنتظر أحد تلك الأفعال، أنا لا أنكر أن إحدى محاسن نسيم التي دعتني لأصبر عليه هي الوفاء لحبه لي، عدم غيرتي وبرودي تجاه الموضوع، كان تأكيداً على نظرية (غيرة التملك)، كانت غيرتي غيرة تملك، ولم تكن غيرة حبٍ، حينما واجهته بالأمر، تعامل معي كما اعتاد سابقًا، قلب المواجهة والصراخ، ثم الشتم، وإن لم انتهِ من مجادلته، لجأ للضرب،

كف عن الصراخ، زمن صراخك وتهديداتك قد ولى، ألا تعتقد ذلك؟

أو سأخبرك أمراً يا نسيم! اصرخ، واشتم أيضًا، هذا كل ما ستستطيع فعله،
لن تستطع تهديدي بطفلي ولا بأذية عائلتي، ولا بمنعي من السفر، هيا اصرخ واشتم كما يحلو لك.

- أجبني يا نسيم!
- ماذا يا ريما؟
- ما الذي حدث بإجراءات سفرك؟
- عودي إلى البلد يا ريما.
- لِمَ أعود؟
- لقد سُجن الرجل الذي كان يستخرج لي الأوراق المزورة، أعتقل البارحة.
- هه... يبدوأنك نسيت الشرط الذي بيننا، حسنًا لا عليك، دعني أنعش ذاكرتك، باقي من الثلاث شهور شهران ونصف.
-هذا يعني بأنكِ لن تعودي؟
-هل أنت أحمق؟ بالطبع لا.
- سأدفع أنا تكاليف عودتكِ.
- اممم، أصبحت تكاليف عودتي الآن على حسابك، اسمع، هناك شرطًا ما بيننا، أنا لن أتنازل عنه، طلقني يا نسيم واذهب في حال سبيلك.
- سأطلقك، ولكن هناك شرطًا.
- أصبحت لك شروط، ما هو شرطك؟
- لنبقَ أصدقاء.
- أوووه، كالمجتمعات الأوربية؟ فكرة جيدة، موافقة.

تبدو مكسورًا وضعيفًا اليوم يا نسيم، راجع نفسك، وتذكر كم من مرةٍ كسرتني، سيتراءى أمامك عدل الله، اليوم أنا حرّة نفسي، شرطه بأن نبقى أصدقاء كان مجرد حيلةٍ لكي يُبقي الباب مفتوحًا أمامه، كان يخبرني بعلاقاته العاطفية الجديدة، ربما كان يريد من ذلك استدراج غيرتي التي اندثرت أصلًا دون أن يشعر، لكن غيرته لم تفعل، لقد غضب من زيارة الخاطبين منزلنا، لقد تتبعت أخباره، قال لي يومها "كيف تستقبلين الخاطبين وأنتِ إلى الآن زوجتي"، تشاجرنا كثيرًا.

- طلقني يا نسيم واذهب في حال سبيلك، فلا سبيل لعودتي مجددًا.

قالها لي بعد يأسه مني.

- أنتِ طالق يا ريما.

وأخيرًا، انتظرتها طويلًا يا نسيم، الحرية نعمة لا ندركها إلّا عندما نفقدها، أو عندما نبلغها من بعد قيد.

كونت الكثير من العلاقات بعد سفري، منها من مر في حياتي مرور الكرام، وقد لا أذكر حتى اسمهم، ومنها مَنْ لا يُنسى، كانت إحدى تلك العلاقات التي لا تنسى، عائلة لطيفة كانت تقيم بالقرب منّا، كانت لديهم بعض العادات الغريبة، لم يكن من المسموح أن تمتلك بناتهن هاتفًا محمولًا، وحينما دُعيت إلى الغداء في بيتهم، أثار انتباهي أن أمهم أبت الجلوس إلى السفرة معنا، لم أتمالك فضولي يومها.

- بيان!

- ماذا يا ريما؟

- أمك طاهية ماهرة حقًا.

- بالهناء والشفاء يا ريما.

-بيان، لماذا لم تجلس والدتك إلى السفرة معنا؟

- لا عليكِ، ستأكل في المطبخ حالما ننتهي نحن من تناول طعامنا.

- لماذا؟

- لا أعلم كيف سأشرح لكِ الموضوع، كان أبي في وقت تناولنا الطعام، يجبرها على خدمته وخدمتنا، فتعجز بدورها عن تناول طعامها، فوجدت أن الحل الوحيد أن تناول طعامها في المطبخ بعد انتهائنا منه، هذه إهانة لها، لماذا لا تخدمون أنفسكم؟ ألا يكفيها تحضير الطعام؟ اعذريني يا بيان، لكن ظننت هذه العادات في الهند فقط!

- ريما، الأنثى عندنا بلا قيمة يا عزيزتي، عندما تتزوج الأنثى عندنا، عليها أن تدرك أن زوجها سيتزوج عليها مرةً أخرى، وستشارك في مراسم الفرح، وربما هي نفسها من ستقوم بتزويجه، أيضًا عليها أن تدرك أنها ستكون خادمةً له ولعائلته، أنتِ مخطوبة يا بيان أليس كذلك، هل ستكون حياتك كما ذكرتِ؟

ستكون أسوأ يا ريما، أنا لا أحب خاطبي، هو في الحقيقة ابن عمي وقد نشأتُ معه منذ صغري وأعتبره أخي، لن أتقبله كزوجٍ لي، ليس هذا فحسب، بل هناك مشكلةٌ أكبر.

- ما هي؟

- توفى عمي بعد ولادة خاطبي بشهر، وقام جدي بتربيته، ووضعه على اسمه.

- ما الذي تحاولين قوله؟

- لقد سُجل في سجلات الدولة على أنه عمي.
- وكيف ستتزوجين بعمك؟
- ارفضي الزواج منه يا بيان.
- أرفض! سيقتلني أبي لو رفضت، والدي يريد إرسالي الشهر المقبل إلى هناك.
- يا إلهي يا بيان، لقد أوجعتِ قلبي، أتمنى أن يجعل اللّه لكِ مخرجًا.

بعد شهرٍ انتقلنا من المنزل، ولأنها لم تكن تحمل هاتفًا محمولًا، لم أستطع معرفة مصيرها، أمَّا ولاء صديقتي، قالت أنه تم تشخيص إصابتها بمرض السرطان، وأن أسرتها وافقت أخيرًا على زواجها من حبيبها، كانت تخبرني عن وقفته إلى جانبها طوال فترة علاجها، تساقط شعرها جرَّاء الجرعات الكيماوية، ظل بجانبها حتى تخطت أزمتها وتعافت، أمَّا بالنسبة له فقد أجرى عمليةً جراحية لقدمه المصابة، وأصبح بإمكانه المشي مجددًا دون استخدام وسيلة مساعدة، كل ما في الأمر أنها أحبت رجلًا، قالت لي بفرحٍ "لقد انتصر حبنا يا ريما".

كان مكان إقامتنا الجديد ملاصقًا للبحر، منذ طفولتي كنت أتمنى أن أعيش بالقرب من البحر، وها قد تحققت أمنيتي، ربما لهذا لم أشعر بالغربة وأنا بعيدةٌ عن موطني، كان نومي متقطعًا، كنت دائمة التفكير بمصيري بعد وضعي الاجتماعي الحالي، امرأةٌ مطلقة ولديها طفل، ولا تحمل أية شهادة،

فتاة فاشلة لا قيمة لها، كنت أمضي وقتي على هاتفي أتصفح مواقع التواصل الاجتماعي، وكنت أسرف في ذلك، قررت تغيير نفسي، البكاء على أطلال الماضي لن ينفع، شتم المجتمع أيضًا والحقد عليه لن يغير منه شيئًا، فإن كان تغيير المجتمع أمرًا مستحيلًا، سأغير أنا من نفسي، بدايةً كان عليَّ الحد من استخدام السوشيال ميديا، وذلك بتحويل اهتماماتي، وإشغال نفسي بأمورٍ أخرى، فنحن ندمن تلك المواقع حينما لا نجد شيئًا نفعله، ولحسن الحظ كان هناك مركزًا قريبًا من بيتنا، وبه بعض الأنشطة الفنية، منها الكروشيه، واللغة الإنكليزية، والرسم بالخيوط على لوحاتٍ من الخشب، شاركت بها كلها، بدأت أتغير وأساعد مَنْ حولي ليتغير أيضًا، تطوعت للمشاركة في حملات مناهضة الأنثى، وأصبحت متحدثةً تحفيزية في المركز، حصلت على بعض الشهادات في اللغة الإنكليزية، والمهارات الحياتية وغيرها، ثم بدأت العمل والاعتماد على نفسي، واستطعت سداد احتياجاتي واحتياجات طفلي دون مساعدةٍ من أحد، عندما كنت طفلة، تمنيت العزف على إحدى الآلات الموسيقية، ولم يكن ذلك مسموحًا في وقتها.

مقطوعة فلامنكو جيتار، كانت سبب معرفتي به، إنه صديقي عبد الرحمن الذي أعطاني درسًا ألّا أتخذ من صغار السن أصدقاءً لي؛ لأنهم سيكبرون في النهاية، أثنيت على عزفه في تلك المقطوعة، وبدأنا الحديث، حدثته عن حلمي في تعلم العزف، وأنني أعشق آلة الجيتار، قال أنه سيعلمني حالما أشتري جيتارًا، لم أشعر إلا وعلاقتنا قد تطورت، حتى صار أقرب إليَّ من عائلتي.

- عبد، لقد اشتريت جيتارًا، ووعدتني أن تبدأ دروس العزف معي منذ شهر.
- عزيزتي ريما، التدريس موهبة أنا لا أملكها.
- حقًا، لم تخبرني بذلك سابقًا.
- لأني كنت أحاول استمالتك، تعلمين أنني زير نساء، ولكننا أصبحنا أصدقاءً فقط.
- أيها الجاحد، أتقصد أنه لو كانت بيننا علاقةً عاطفية كنت علمتني العزف؟
- بل كنت وعدتك بذلك فقط.
- تمامًا كوعدك الفتيات بالزواج، يا لك من زير نساء.
- اسمعي يا ريما، أنا سأعتزل الموسيقى عاجلًا أم آجلًا.
- لماذا؟
- لأنها حرام، لا أريد إغضاب الله بعزفي للموسيقى.
- من أخبرك أن عزفك الموسيقى يغضب الله.
- ألا تظنين أن عزف الموسيقى يغضب الله.
- بالطبع لا.
- لا تفتِ يا ريما.
- معاذ الله أن أفتي، أخبرك بقناعتي عن ذلك فقط.
- قناعة؟ قومي بالبحث على الويب وتأكدي.
- اسمع يا عبد، ستختلف نتيجة البحث باختلاف صيغة السؤال، فلو كان السؤال *"هل الموسيقى حرام؟"*، ستظهر لك بنتيجة البحث فتاوى بتحريمها، ولو عكست الصيغة وكتبت *"هل الموسيقى حلال؟"*، لوجدت بعض الفتاوي بتحليلها، ثم لستُ أنا من يعزف على آلتين موسيقيتين، بل أنت، قلبك هو دليلك في

استخدامها، هل تستخدم الموسيقى كعملٍ لكسب المال؟، هل تعزف الموسيقى وراء الراقصات والفنانات؟ هل تلهيك عن ذكر الله؟ بالطبع لا، أنت تعزف لنفسك، وأنا لا أفتيك يا عبد، بل أخبرك بما توصلت إليه بعد بحثي عن الموضوع.

- لم أقتنع يا ريما.

- اسمع يا عبد الرحمن، سأفتيك بهذا دون خوفٍ، إنَّ تركك خداع الفتيات بوعود الزواج الواهية، وعدم كسر قلوبهن، أولى عند الله من تركك الموسيقى.

- ليست بيدي حيلة أنتنّ جميلات، *"ربي خلقت الجمال وقلت اتقوا، كيف نرى الجمال ولا نعشق"*.

- لا فائدة ترجى منك، منطقك أعوج يا عبد.

كنَّا أصدقاءً للحد الذي كنت أخبره كل تفاصيل يومي، وكنت أخبر كل من أعرفه عن صداقتنا تلك، على مدار سنتين كنَّا نتحدث يوميًا، كان يغضب لغضبي، ويحاول زرع البسمة على وجهي إذا كنت حزينة، كان يقول لي أن عبد الرحمن الذي أراه وأكلمه، لا يشبه عبدًا الذي يكونه مع باقي الفتيات، كنت أحبه حبًا من نوعٍ خاص، وكأنه أخي الصغير أو لنقل أني كنت أشعر تجاهه بنوعٍ من الأمومة، مع أن فارق السن بيننا سنتان فقط، كان يعلم جيدًا أني أكره العيد، لأن لي معه ذكريات سيئة وغالبًا ما أدخل بحالة اكتئاب وأقوم بسجن نفسي في غرفتي حتى انتهائه، قال لي: العيد على الأبواب، أفكر في السفر إلى الساحل.

- أنا أحسدك يا عبد الرحمن، فأنت تجيد الاستمتاع بالعيد، العيد عندي اليوم مصدر شؤمٍ.
- كفي عن هذا يا ريما، سأزورك في العيد.
- أحقًا ستأتي يا عبد الرحمن؟
- أجل، ولما لا؟
- لن تستمتع هنا، لا أنصحك بالمجيء.
- أعلم، ولكن لن أسمح لكِ أن تكتئبي كعادتك في كل عيد، سنخرج معًا، وسنأخذ طفلك معنا، وسيكون عيدك هذا العام مميزًا.
- هل أنت جاد؟ هل ستسافر مسافة ست ساعاتٍ فقط كي لا أكتئب في العيد؟
- بالتأكيد أنا جاد.
- حسنًا، آمل ألّا تندم على ذلك.
- لن أندم يا ريما.

اليوم التالي لحديثنا كان أول أيام العيد، لقد وصل باكرًا وانتظرني طوال النهار، حتى تمكنت من الخروج للقائه.
ذهبنا إلى الملاهي وركبنا الدراجات والسيارات الكهربائية، وتصادمنا وضحكنا، ما من أحدٍ قادرًا، على إضحاكي كما يضحكني عبد الرحمن، وفي طريق عودتنا اشترى لنا بعض الحلويات، واهتم بطفلي طوال الوقت، في اليوم الذي يليه، سهرنا معًا على شاطئ البحر، وكانت أختي وصديقاتي معنا أيضًا، عزف لنا بعض الموسيقى ثم غادر إلى مدينته ثالث أيام العيد، لم أكن أعلم أن لاستمتاعي هذا ضريبة، وسأفقده من بعدها.

بعد وصوله لمدينته تغيرت طريقته في الحديث معي، أصبح شديد اللطف فجأة، مع بعض كلمات الغزل التي ما اعتدتها منه.

- عبد الرحمن!

- ما الأمر؟ لِما أصبح مزاحك ثقيلًا فجأة.

- لكنني لم أمازحك!

- عبد الرحمن، لقد غازلتني بلطف، لا تتحدث معي بهذه الطريقة، لقد بدأ مزاحك يزعجني.

- ربما، نحن نعرف بعضنا منذ سنتين أليس كذلك؟

- ما الذي تحاول الوصول إليه؟

- هل من أحد يستطيع احتمال تقلبات مزاجك وغضبك المفاجئ مثلي؟

- حسنًا، لا أحد، ولكن ماذا تريد من كل هذا؟

- فلنتزوج.

- ماذا؟ هل جننت؟ بالتأكيد جننت، ماذا حدث لك؟ ألم تقل أنك لا تنجذب لي؟

- أجل كنت كذلك، ولكن بقيت أفكر بك طوال طريقي إلى المنزل ولم أفهم السبب، لا أعلم ما الذي غير نظرتي تجاهك، ولكن هذا ما حدث.

- لقد كنت حريصةً على ارتداء ملابس محتشمة، يدك لم تلمس يدي، كنت حريصةً بتصرفاتي معك، وبكلامي معك، ما الخطأ الذي فعلته ليتغير شعورك تجاهي؟ كنت تعاملني كأختك.

- هل أنتِ حمقاء؟ أنا لا أفعل لأختي ما أفعله لك، ولا أحتمل أحدًا كما أحتملك، ولا أسمح لأحدٍ أن يكلمني بالطريقة

التي تكلمينني أنت بها، وبالتأكيد لن أسافر ست ساعاتٍ كي آخذ أختي إلى الملاهي!

- هل تعي ما تقوله؟ هل فكرت بردة فعل أسرتك عن هذا الجنون الذي أصابك؟

- سنتزوج بالسر يا ريما دون علم أسرتي.

- لقد جننت، فهذا ليس بكلام عاقل، مَنْ قال أني سأوافق، هل نسيت أن لدي أسرة تهتم لأمري، وأنا لا أفكر بك بتلك الطريقة، حبي لك حبُ أخوي وكأنك فرد من عائلتي، أرجوك، أتوسل إليك لا تفسد صداقتنا، حينما تعود لرشدك كلمني.

علمت أني فقدته يومها، متى دخلت العواطف بين اثنين في علاقة أفسدتها،

ذاك الذي ما كان ينام إن غضبت منه، اليوم كان كلامه معي كالسم، لقد تفنن في جرح مشاعري، ويبدو أن علاقتنا انتهت اليوم، تجاربنا الفاشلة بالحياة حتى ولو كانت مؤذية، هي لن تتعد كونها درساً تعلمنا منه كيف نواجه الحياة بشكلٍ أفضل.

رسالة لكِ

ستنضجين يا عزيزتي، وستدركين حقيقة أن بعض الرجال الشرقيين لديهم العديد من الوجوه، سيظهر أمامك الوجه المناسب حسب درجة القرابة، فالوجه الذي يرتديه أمام

العشيقة، لا يشبه الوجه الذي يرتديه أمام الزوجة، وهناك الوجه الخاص لفترة الخطوبة، وطبعًا هناك الوجه المثالي الخاص أمام الأهل والأقارب، ووجهٍ خاصٍ بالأصدقاء، وجه الحرباء، وجهٌ مميز لديه لأنه كثير التلون، سيتلون تدريجيًا حتى يأخذ مبتغاه منك، وبعدها
ستكتشفين أن تلك الحرباء التي خدعتك لا تتلون فحسب، بل أيضًا تخفي أنيابًا كأنياب الأفعى، ستبث سمها في قلبك؛ لتتحولي إلى إنسانة ليس لك عهد بها، إما منتقمة أو مكسورة أو حاقدة.

عاهدت نفسي أني لن أسمح باقتراب صغار السن مني مجددًا، فهم غير متزنين عاطفيًا على الأغلب، لقد تعلمت أنني كلما كنتُ جيدةً في التعامل مع الناس أكثر، كلما سمحت لهم باستغلالي بشكلٍ أفضل، وأنه لا يجب عليَّ إنقاذ كل من يغرق، فبعض الناس طريقتهم غريبة في السباحة، وهم سعداءٌ بها، مطاردتك لأحلامك ستخلق لك عداوةً مع الناس؛ لذا لا تستمع لهم وتابع طريقك.
كان لدي هدفًا محددًا هو السعي نحو النجاح، وهو تحويل وضعي الاجتماعي لميزة، عدت إلى صفوف الدراسة، وأنهيت دراستي الثانوية، حققت نجاحًا في مجال عملي، درست اللغات وكنت أعتني بطفلي جيدًا، وأرفض أي مساعدة تقدم لي، فتحولت نظرة من حولي من الشفقة إلى الاحترام، حينما ترتفع قيمتك في عين نفسك، سترتفع قيمتك في عين الجميع، كنت فخورة بنجاحي، خاصةً حينما أجد بأن نجاحي الخاص أصبح دافعًا

لنساءٍ أخريات نحوالنجاح، فيتأثرن بي وبأفكاري وبمجهودي، ولم يكن ما فعلته سهلًا، بل كانت العقبات تملأ طريقي، لذا وضعت فلسفتي الخاصة في مواجهة المشكلات، وهي في حال وجود عقبةً في طريقي، أحاول تجاوزها، وإن كانت أكبر من قدرتي على التجاوز وداهمني الفشل في تخطيها، بدلًا من أن أبكي عليها، أسلك طريقًا آخر.

العودة إلى الدراسة بعد انقطاع سنواتٍ طويلة سهلًا، خاصةً في بلدٍ ليس بلدي؛ لأدرس منهاجًا دراسيًا لم أعتده، إضافةً لعملي واهتمامي بطفلي ووالداي.

كل يومٍ قبل ذهابي إلى النوم، حينما كان التعب والإرهاق يتملكاني، أخبر نفسي أني سأستسلم في الصباح ولن أحضر دروسي مجددًا، ثم أستيقظ وقد رميت يأسي كله على وسادتي؛ لأعود المرأة الصلبة التي ما من شيءٍ يمكنه إيقافها أو منعها من النجاح، فلو كان النجاح سهلًا لمَا كنا أدركنا قيمته، أهذا هو بدلي الضائع الذي بحثت عنه *"النجاح"*، كنت سعيدةً وفخورةً بنجاحي، وبأني لم أعد تابعة لقوانين المجتمع، ولكن ذلك المجتمع الذي أجبرني أن أسلك مسارًا ليس من اختياري نفسه من سيحطم قلبي،

فقواعده هي التي تسود، مهما حاولت جاهدةً الهرب من قواعده المجحفة، سيصل إليّ أينما كنت؛ ليُلحق بي لعنة البؤس، لقد نجحت في تحويل انفصالي السابق إلى دافعٍ للنجاح، لقد نجحت بمواضعٍ كثيرة، وأجبرني المجتمع على تقبل الفشل أيضًا بمواضعٍ أخرى، وأسوأها كان حينما التقيتك أيها الصغير، هل

أخبرتك بأني عاهدت نفسي بعدم الاقتراب من صغار السن؟ كيف سمحتُ لنفسي بالاقتراب منك؟

بدأت مغامرتي الجديدة بالسلام

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام؟ من معي؟
- أنا عمر، من أنتِ؟
- ما سبب سؤالك؟ وماذا تريد؟ ومِن أين أتيت بالرقم؟ فربما نكمل حديثنا أو ربما قد لا نفعل، هذا يتوقف على إجابتك.
- أتيت به من إحدى مجموعات الإعلانات، أنت مشتركة بها.
- بالله عليك لا تخبرني بأنك أخذت الرقم لتقول "ممكن نتعرف؟".
- ولكني لم أفعل ذلك.
- هل انتشر رقمي؟
- لا لم ينتشر.
- اسمع، أنا شخصية لئيمة للغاية، أرجوك كن واضحًا معي، ما الذي تريده؟
- ما الفائدة المرجوة من حديثي معكِ؟
- قل لي أنتَ.
- أنا آسف لأنني قمت بمراسلتك، لم أقصد إزعاجك.
- يبدو من صورتك أنك شخصٌ محترم، لا أعلم لِمَ راسلتني من الأساس.
- ولا أنا أيضًا لا أعلم ما الذي دفعني لمراسلتك، ولكن هذا ما حدث.

- تبلغ الخامسة والعشرين من العمر أليس كذلك؟ أنا أكبر منك يا عمر، أخطأت بتخمين عمري، ربما أصغر بسنةٍ، أو أكبر بسنة.

- لا شأن لكِ بعمري، ثم أنا أكبر منك عقلًا وسنًا.

- ولماذا تريد إخفاء سنك عني؟ هل لأني قلت لك أني أكبر؟

- اسمع هذا أيضًا، لدي طفل.

- تمزحين أليس كذلك.

- لا، لا أمزح، سأرسل لك صورته.

- أخوكِ؟

- أيها الصغير، صورتي التي رأيتها لا تظهر سني الحقيقي، أنا أكبر منك ولدي طفل، وعليك أن تعلم أني كثيرة التنمر على من هم أصغر مني سنًا، وأعتبر كل من هم أصغر مني بمثابة إخوتي، هل اتضحت الصورة أمامك الآن؟

- فلنتفق أني لن أكون أخًا لك، ولن أصبح بمثابة أخٍ لك، هل اتضحت الصورة الآن؟

- دقيقتان، دقيقتان هي المهلة التي أمنحها لمن يراسلني بتلك الطريقة؛ ليفصح عما يريده مني، ثم أقوم بحظره.

- جيد، لقد تعدينا الدقيقتان بأشواط.

- هل تعلم أنك صغيرٌ مستفز؟

- توقفي عن مناداتي بالصغير.

لقد أراد مني أن أنسى فارق السن بيننا؛ لذا كان ينزعج من لقب الصغير، كنت أتعمد مناداته بالصغير؛ ليتذكر فارق السن بيننا، لأن فارق السن ستترتب عليه الكثير من الأمور لاحقًا،

وأولها أن أغلق المجال أمامه؛ لكي لا يبدأ معي مغامرةً عاطفية، كلانا يعلم جيداً أن طريقها مغلق.

في صباح اليوم التالي، وجدت على هاتفي ستة عشر رسالة، يبدو أن لديه الكثير من الوقت الفارغ ليرسل هذا الكم من الرسائل.

- أيها الصغير، أليس لديك شيئًا لتفعله؟

- نعم لدي الكثير من الوقت، أين ذهبت صورتك؟

- جعلتها ظاهرةً لجهات الاتصال فقط.

- هذا يعني شيئًا واحدة.

- يعني بأني لم أقم بتسجيل رقمك عندي.

- سجليه إذاً، ووضعك الصورة ظاهرة لجهات الاتصال فقط، أمرٌ جيد حتى لا يراسلكِ المتطفلون.

- متطفلون؟ قلها مرةً أخرى أيها المتطفل.

- يا إلهي، يتحدث المرء بأشياءٍ غريبة في المساء، من الأفضل أن نذهب إلى النوم قبل أن أدلي بأمورٍ غريبةٍ أخرى.

- قبل ذهابك للنوم، قم بإرسال رابط صفحتك على الفيسبوك.

- ما الذي تريدينه منها؟

- أنت مسلٍ حقًا، وقد استمتعت، ولكن لا أشعر بالراحة من حديثي مع شخصٍ أجهله، لذا ارسل لي رابط صفحتك أو كف عن مراسلتي.

- ستشعرين بالغرابة لو رأيتها.

- لماذا؟

- لا شان لكِ.

- حسنًا، لننهي حديثنا إذًا عند هذا الحد.
- يا لكِ من حمقاءٍ عنيدة، هذه صفحتي، اخبريني، ما انطباعك بعد تصفحها؟ ما هو انطباعك؟
- صفحتك عادية يبدو أنك ملتزمٌ دينيًا، لقد شاركت الكثير من مقاطع الفيديو الدينية، والاقتباسات والأحاديث، لا شيء مهم عدا ذلك.
- حقًا، هل تعلمين بأنك غبية.
- أيها الصغير، احترم من هم أكبر منك سنًا.
- أنتِ أكبر سنًا، وأصغر عقلًا، متى ستنسين فارق السن، فارق للسن بيننا ليس كبيرًا، فكفي عن مناداتي بالصغير.
- سأفكر بالموضوع، تصبح على خير الآن.

في الصباح فتحت هاتفي، لقد انتظرت أن يراسلني مجددًا، ربما قد اعتدت استفزازه لي، ولكنه لم يفعل، فتحت صفحته مرةً أخرى، كان على حق، لقد كنت غبيةً ولم أنتبه أن تلك الفيديوهات كانت لمقابلاتٍ تلفزيونية أجريت معه، متحدثٌ تحفيزي، ومثقف وقارئ جيد، وبارع في الخطابة، وله الكثير من المتابعين، لقد أعجبتني حقًا أيها الصغير.
تنمرت عليه وقمت باستفزازه، ولم يحاول أن يثير إعجابي، أو يثبت أني مخطئة في حقه، واحتمل أسلوبي الفظ، ولم يبتعد رغم كل محاولاتي في إبعاده.
- لماذا لم تراسلني اليوم؟
- هل افتقدتِني؟

- لقد أعجبتني، لماذا لم تخبرني أنني مخطئة في حقك، لما تحملت استفزازي وطريقتي الفظة في حديثي معك، كنت أعلم بأنكِ عفوية ومندفعة وطفولية، وكان من الممكن أن نكمل حديثنا دون أن أخبرك بشيءٍ عني، ولكنك حمقاءٌ عنيدة.

- حسنًا يا عمر، وأنت أيضًا لا تعرف شيئًا عني، فلست أقل منك.

- حقًا!

-أجل، أنا strong independent woman.

- كيف ذلك؟

بدأت إخباره عن مغامراتي بسعادة، وعن دراستي وحملات مناهضة الأنثى التي شاركت بها، وعن عملي والمصاعب التي تخطيتها، وكان يستمع لي، وحينما انتهيت قال لي:

- ريما، لقد كنت أستمع إليك وأنا مبتسم، أنا فخورٌ بك.

-حقًا! ذلك يسعدني كثيرًا، هل لاحظت بأني غيرت طريقتي اللئيمة بالحديث معك.

- أجل لاحظت، وتوقفتِ أيضًا عن مناداتي بالصغير.

- ريما!

- ماذا؟

- ماذا لديكِ غدًا.

- أخطط للنزول إلى جامعتي، هناك بعض الإجراءات التي عليَّ إتمامها في شئون الطلبة.

- جيد، سأراكِ غدًا.

- لا أظنها فكرةً جيدة.

- أريد رؤيتك حقًا.
- نناقش هذا غدًا.

في الصباح خرجت إلى جامعتي، كنت أخبر نفسي طوال الطريق أنني ذاهبة للجامعة، لا من أجله!
دخلت الجامعة، هناك طابور طويل عند شئون الطلبة، أنا أكره الانتظار، ومع حالة التوتر التي أنا بها، فلا أظن أنني سأحتمل الوقوف في الطابور، مقر جامعتي ملاصق للبحر، خرجت من الجامعة وذهبت إلى أحد الأماكن التي أفضلها والتي تمتلك بدورها إطلالةً رائعةً على البحر، طلبت فنجانًا من القهوة في محاولةٍ بائسة لدفع التوتر، اتصل بي وطلب مني انتظاره، وأخبرني أنه لن يتأخر.
لم تكن حالة التوتر التي أنا بها اعتيادية، كانت أشبه بألم الاحتراق، منظر البحر جميلٌ في ذلك المقهى، ولكن يبدو أنني لا أستطيع تأمله اليوم، غضبت لتأخره، فكنت أستمر بالاتصال به؛ لاستعجاله، فلم أكن أقوَ على الانتظار بحالتي تلك، ولم أقوَ على مغادرة المكان دون رؤيته.
- أيها الصغير، لقد تأخرت.
- أنا آسف، لقد اضطررت للتأخر، الطريق مزدحمًا.
- كم تحتاج من الوقت للوصول؟
- ربع ساعة.
- هل تريدني أن أنتظر ربع ساعة أيضًا، أنا أنتظرك منذ ساعة، سأقتلك حالما أراك، وسأرميك في البحر؛ لتصبح طعامًا للسمك.

- حسنًا، افعلي ما تشائين، ولكن اهدأي الآن، سأصل قريبًا.

وبعد مضي ساعةٍ ونصف، أتى الصغير، ولم يكن صغيرًا على الإطلاق، لأول مرةٍ في حياتي أشعر أنني طفلة هكذا، شعرت بالخجل منه إلى الحد الذي أردت به دفن نفسي.
- ريما، اركبي السيارة.
- لن أركب بالطبع، للنزل إلى المقهى.
- أنظري حولك، لا مكان هنا لكي أركن سيارتي، هيا اركبي.
- ولكن... حسنًا، سأركب.

وثقت به، أعلم أن ذلك خطأ، وأنني قد عرفته منذ أربعة أيامٍ فقط، كنت أشعر بالأمان معه، الأمان الذي لطالما بحثت عنه.
-ريما، كيف حالك؟
- جيدة يا عمر.
- عمر أم الصغير؟
- لا تنظر إليَّ، أشح نظرك عني وانظر أمامك.
- هل أنتِ حقًا أكبر مني؟ أترين المصحف أمامك، لو أقسمت على المصحف بأنك أكبر مني لن أصدقك.
- حسنًا، خذ جواز سفري وتصفحه، فربما قد تفعل.
- حسنًا، اقتنعت، أنتِ أكبر، ولكن تبدين أصغر بعشر سنوات.
- تلك نعمة يا عمر، أليس كذلك؟
- أرجوك، أشح نظرك عني وانتبه للطريق، فأنا متوترة وأشعر بالخجل.

- هل أنتِ ريما نفسها التي كانت تصرخ منذ قليل، من قالت بأنها ستجعل مني طعامًا للسمك؟

- أجل.

- هل أنتِ ريما التي كانت تتحدث بفظاظةٍ في بداية تعارفنا؟

- هيا اسخر مني يا عمر، تشعر بالشماتة مع حالتي هذه أليس كذلك؟

- أتعلمين لماذا أردت رؤيتك؟

- لماذا؟

- كان علي أن أرى إن كان فارق السن بيننا مشكلة.

- أعلم أن رؤيتي لكَ خاطئة، وحديثي معكَ أمرٌ خاطئ، ومن الخطأ الاستمرار بفعل ذلك، ولكن لا أريد التوقف.

- اسمعي، لي وضعي الخاص، فهذه الأفعال التي ربما أعتبرها طائشة لم يسبق أن قمت بها سابقًا.

- أعلم هذا يا عمر.

بعد أن تركته وعدت إلى البيت، أصابتني حالة غريبة لا تقل غرابة عن معرفتي به، امتنعت عن الطعام، وأصبحت شاردة الذهن بحماقةٍ لم أعتدها مني، حتى النوم قام بهجري، حدسي يقول أنه طريق خاطئ، والمنطق يقول بأن طريقنا مسدود، وقلبي يقول ....قلبي، لقد ظننت أنه عضلة لضخ الدم فقط لم أكن أعرف أنه يستطيع التحدث، هل يعقل أني وقعت في حب ذلك الصغير، ذلك مستحيل لم يمض على معرفتي به الكثير، أفكارٌ كثيرة ومشاعرٌ كثيرة تداهمني، ما الذي فعلته بي يا عمر؟

-ريما، أريد رؤيتك.

- تريد رؤيتي مجدداً؟ اسمع يا عمر، حالتي سيئة للغاية ولا أستطيع الوقوف،

لا قدرة لي على انتظارك.

- لن أجعلك تنتظرين لا تقلقي.

ارتديت ملابسي وخرجت لرؤيته، كنت في حالةٍ يرثى لها.

- هل أنتِ مريضة يا ريما؟

- قلت لك أني لا أستطيع الوقوف، أنا لم أتناول أي شيءٍ على الإطلاق منذ أربعة أيام.

- لماذا؟

- بسببك.

- بسببي أنا؟

- سأهرب منك.

- تهربين؟

- سأغلق هاتفي وأبتعد، الأمر بسيط.

- لا تتحامقي، سأجدك أينما كنتِ.

- اسمع يا عمر، ما نفعله خاطئ، وأنا لم أعتد على سلك طريقٍ أعلم جيداً أن آخره مغلق.

- أعلم جيداً ما الذي يخيفك يا ريما، فارق السن، زواجك السابق، ابنك، ولأنك من جنسية مختلفة.

- أجل يا عمر، نحن غير مناسبين لبعضنا، فالأفضل أن نتوقف قبل الوقوع بالهاوية.

- كل ما ذكرته لا يعنيني، ولا أرى مشكلة فيه.

- ولكن يا عمر عائلتك ستعارض بالطبع، هل يبدو لكِ أني شابٌ مدلل، دعي الأمر لي سأحاول إقناعهم، أنا لا أتسلى بكِ يا ريما.
- أعلم هذا جيدًا يا عمر.

لم تتعدَ معرفتنا ببعض أكثر من شهر، شهر واحد كان كفيل لقلب حياتي رأسًا على عقب، لطالما بحثت عن بدل ضائع، بدل ضائع لأحلامي، بدل ضائع للسنين التي خسرتها في علاقةٍ فاشلة، بدل ضائع عن وطني الذي تركته خلفي، كنت أفرط في العمل وبذل المجهود إلى الحد الذي يفوق احتمالي في بعض الأحيان، ولكنني كنت سعيدة رغم الإرهاق، عند حصدي ثمار مجهودي أشعر بالفخر وبأن لي قيمة، وبأن ما وصلت إليه خلال فترةٍ قصيرة، قد يكلف غيري عمره محاولًا الوصول إليه، شعرت أن حياتي قبل عمر كانت مكتملة، وأن الحب مجرد أسطورة لا وجود لها على أرض الواقع، وأني سأشيخ وقد لا أجد الشخص الذي قد يكون التخلي عنه أمرٌ صعب، ولكن لعنة المجتمع تلك من المحال أن تسمح لنا بالعيش في سلام، وأحيانًا قد يكون الحب وحده غير كافٍ، رأيت فيه البدل الضائع الذي لطالما بحثت عنه، ويبدو أنه لم يقدر لي الاحتفاظ به، جميعنا نبحث عن بدل ضائع بطريقة ما، أليس كذلك؟

- كان عليَّ الهرب.
- لِمَ قمت بتخديري بحبك الزائل؟ أخبرتك بأن طريقنا مسدود، أخبرتك مرارًا عن لعنة المجتمع، جعلتِني أسمع لأول

مرة حطام قلبي، سيكون هناك أول مرةٍ لكل شيء، أليس كذلك؟ ذاك اللعين قلبي كان عليه أن يتحطم، فلطالما قلت بأنه لا يتناسب مع هذه الدنيا، لطالما استغلوا طيبته وحبه وحنانه، كان عليه أن يتحطم، ولأنني لم أكن أملك قلبًا عاديًا، فحطامه لم يكن عاديًا، لا تقلق، سألملم حطامه في نصف ساعة، أليست كافية؟ ليس هذه المرة، قلبي لن يعود كما كان، ومن المحال ترميمه، لا تقلق سينمو لي قلبٌ جديدٌ، قلبٌ قاسٍ، صلبٌ ولا يثق، لا يثق..

2020/ 11/11

اليوم الثاني على التوالي، والنار في قلبي لم تنطفئ، أين تلاشت قوتي؟

ألم أقل أنه يمكنني التخل عن أي شخصٍ في ظرف نصف ساعة.

- هناك مقولة تقول "احذر ما تتمنى"، سمعتها مرارًا ولم أتحقق من صحتها حتى قابلتك، أذكر حينما قابلتك أرسلت لك أغنية لـ *ويتني هيوستن* التي تقول فيها " i have nothing if i dont have you"، وقلت لك أريد تجربة هذا الشعور يومًا ما، شعور أن أحب أحدًا لدرجةٍ كبيرةٍ جدًا، حيث يصعب عليَّ التخلِ عنه، ليتني ما تمنيت، في بداية حديثنا قلت لك أني أمهل الشخص دقيقتين ليفصح عمَّا يريده مني، أو سأقوم بعمل (البلوك)

قلت لي "لقد تعديتِ الدقيقتين بأشواط"، كما تعديت قاعدة النصف ساعة بالشفاء، ليتني فعلتها أيها الصغير، ليتني قمت

بعمل (البلوك) كعادتي، وليتك بقيت صغيراً في نظري، وليت صوت المنطق عندي كان أقوى من صوت قلبي، وليتنا ما تقابلنا، وليتني أكف عن قول يا ليت10/11 /2020

اليوم الثالث على التوالي

استيقظت في الساعة الثانية بعد منتصف الليل على ألم الحريق بصدري، يا للمهزلة، حرائق بلدي خمدت وحرائق صدري مشتعلة، أيها الصغير، كيف اقتحمت عالمي هكذا؟ بل كيف سمحت لك بذلك؟ لقد أفنيت نفسي في سبيل الوصول إلى المرأة الصلبة التي كنتها قبل معرفتك، لقد نسفت صلابتي في بضعة أيامٍ، منحتني شعور الحب والأمان والثقة، لا أستطع مقارنته بشيء،

السعادة التي حظيت بها بوجودك لا يمكن مقارنتها بأي شيء، ورصيدي من الوجع اليوم لا يمكن مقارنته بأي شيء!!

هل أخبرتك أن جمالي ازداد بمعرفتك؟ هذا ما قاله من رآني بعد أن التقيتك، قالوا أني بدوت جميلةً جداً في ذلك اليوم، بعد قولهم هذا، تأملت وجهي في المرآة، يا إلهي أبدو جميلةً فعلًا، لقد كنت معدومة الثقة بشكلي، لم أكن أرى سوى عيوبي، وبعد أن عرفتك لم أعد أرى عيوبي، معك أحببت نفسي، مع حبي لك، تأملت وجهي مجدداً بعد فراقنا، لقد ازدادت عيوب وجهي أيها الصغير، لقد ازدادت، وأكل البكاء عينيّ الجميلتين، والابتسامة التي اكتسبتها معك فقدتها 2020/10/12

اليوم الرابع على التوالي

حريق قلبي اتقد على الواحدة بعد منتصف الليل، لقد طال الأمر أيها الصغير، الحريق في قلبي حرمني طعم النوم، أتذكر قلقي الشديد بعد لقائنا أول مرة؟ هدّأت من روعي يومها "لا تخافي وأنتِ معي يا ريما"،

الصغير!يزعجك هذا اللقب، لقد تعمدت إزعاجك به، كان عليَّ تذكيرك أن فارق السن بيننا سيترتب عليه فراقنا، دستور مجتمعي، لا يمكن تجاوزه،

قلت لي لا تخافي، سأدافع عن اختياري لك حتى النهاية، وقد فشلت في ذلك، كيف تطور الأمر بيننا بسرعة؟ أحببتني بثلاثة أيام، ودفعتني لأحبك بعدها بيومين، يقولون ما يأتي بسرعة يرحل بسرعة، افترقنا بسرعة، ولكن حبك أبى الرحيل 2020/10/13

اليوم الخامس على التوالي

لم يوقظني حريق قلبي وكنت خلال النهار بخير، ولكن لم يتلاشى الألم، وما زلت تستحوذ على تفكيري، بعد رصدي لمعدل تعداد اسمك يوميًا في ذاكرتي، لا أظن بأن نسيانك ممكنًا، أعتقد أنك تعاني أيضًا، تستحق المعاناة، لن أشفق عليك، أنت من دفعنا للخوض في طريقٍ مسدود، ومنعتني مرارًا من الانسحاب، ولم تستمع لي ولا لتنبيهاتي، واعتذرت عن ذلك بـ "آسف"، نسيت أن أقول لك أني أكره كلمة "أسف وشكرًا"

لا أجد بهما أية قيمة، فلو أردت الاعتذار عوضني، ولو أردت شكري أسعدني، أمّا الكلام فجميعنا نجيده.
2020/10/14

اليوم السادس على التوالي
لقد نمت اليوم بعمق، أتعلم منذ لقائنا أول مرةٍ والنوم قد هجرني، ولم أعرف السبب، حتى شهيتي أيضًا، وحينما رأيت صورتك اليوم، شعرت وكأنك لم تكن حقًا في حياتي، وكأنك كنت حلمًا جميلًا أضحى كابوسًا، الغضب لم يغادرني إلى الآن، أحتاج هذا الغضب علَّني لا أرتكب الحماقات مرةً أخرى.
2020/10/15

اليوم السابع على التوالي
الساعة الرابعة صباحًا، يبدو أن توالي الأيام لن يجد سبيلًا في شفاء قلبي، يجب أن أتأقلم مع هذا الوجع، أفتقدك كل يومٍ أيها الصغير، أفتقد سؤالك عني وخوفك عليّ، اهتمامك بي وحبك لي، أفتقد ابتسامتك البخيلة وانتظاري لك، أتعلم أنني أكره الانتظار، ولكنني كنت أنتظرك، لقد أتيت بلا موعد، ورحلت بلا موعد.

2020/10/17

اليوم الثامن على التوالي

يقول الشاعر نزار قباني *"إن لم يزدك البعد حبًا فأنت لم تحب حقًا"* ، الساعة الآن الثامنة صباحًا ، لقد استيقظت على ألم قلبي في الساعة الخامسة، وبعد محاولاتٍ يائسة للعودة للنوم ، استسلمت للألم والأرق، ولولا أني أملك رصيدًا مرتفعًا من الكرامة، لكنت وجدت مني الآن على هاتفك رسالة SMS **"ترى هل سيجمعنا القدر مرةً أخرى، وإن حدث والتقينا ، هل ستعانقني؟".**

2020/10/17

أيها الصغير، توقفت عن عد الأيام، ولكني اليوم مررت بموقف الحافلات، ذات الموقف الذي ركبنا منه آخر مرةٍ، أتذكره؟ وقفت على الناصية وبكيت كثيرًا، تذكرتك واسترجعت خطواتنا التي مشيناها في السوق حيث جررتني كالطفلة، ضحكت عليك يومها وقلت لك "*أنا أجرُّ طفلي من يده خوفًا عليه*" بذات الطريقة، نظرت لي وابتسمت وقلت لي "*ستكونين ابنتي وزوجتي وحبيبتي*"، يوم فراقنا قلتَ لي "*أنا متعب، هناك امورًا تحدث أنتِ لا علم لكِ بها، أعيش معهم كابوسًا وحينما أكلمك أتخدر، وكأن شيءً ما يحدث لي، كلهم ضدي، إن اخترتك سأفقدهم*".

قلت لك يومها "*ليتني ما التقيتك، فلتبتعد عني أرجوك، طريقنا مسدود*"، قلت لي "*أنا اسف*"، وما نفع الأسف أيها الصغير" *أنا آسف، ستكونين بخير، ما هي إلا أيامٌ وستمضي، وكل ما استطيع أن اعدك به، أني لن أسمح بدخول أحد غيرك إلى حياتي، واللّه ما أحببت مثلك واللّه لن أحب غيرك، أعدك ستبقين بقلبي ما حييت، اعتني بنفسك أرجوك*"، أيها الصغير، كم مرةٍ قلت لك لا تطلق وعودًا لا تستطيع أن تفي بها؟ ستدخل الكثير من الفتيات حياتك، ولكن ستبحث عني في كل واحدةٍ منهم، ولن تجدني، ستغدو طبيبًا ذائع السيط، وستصبح من الرجال المؤثرين بين الناس، هذا ما أثق به، أنا أثق أنك ستغدو عظيمًا، وسأدعُ لك كثيرًا، أعدك وأنا لا أطلق وعودًا لا أستطيع أن أفي بها، تأكد من هذا.

تمت